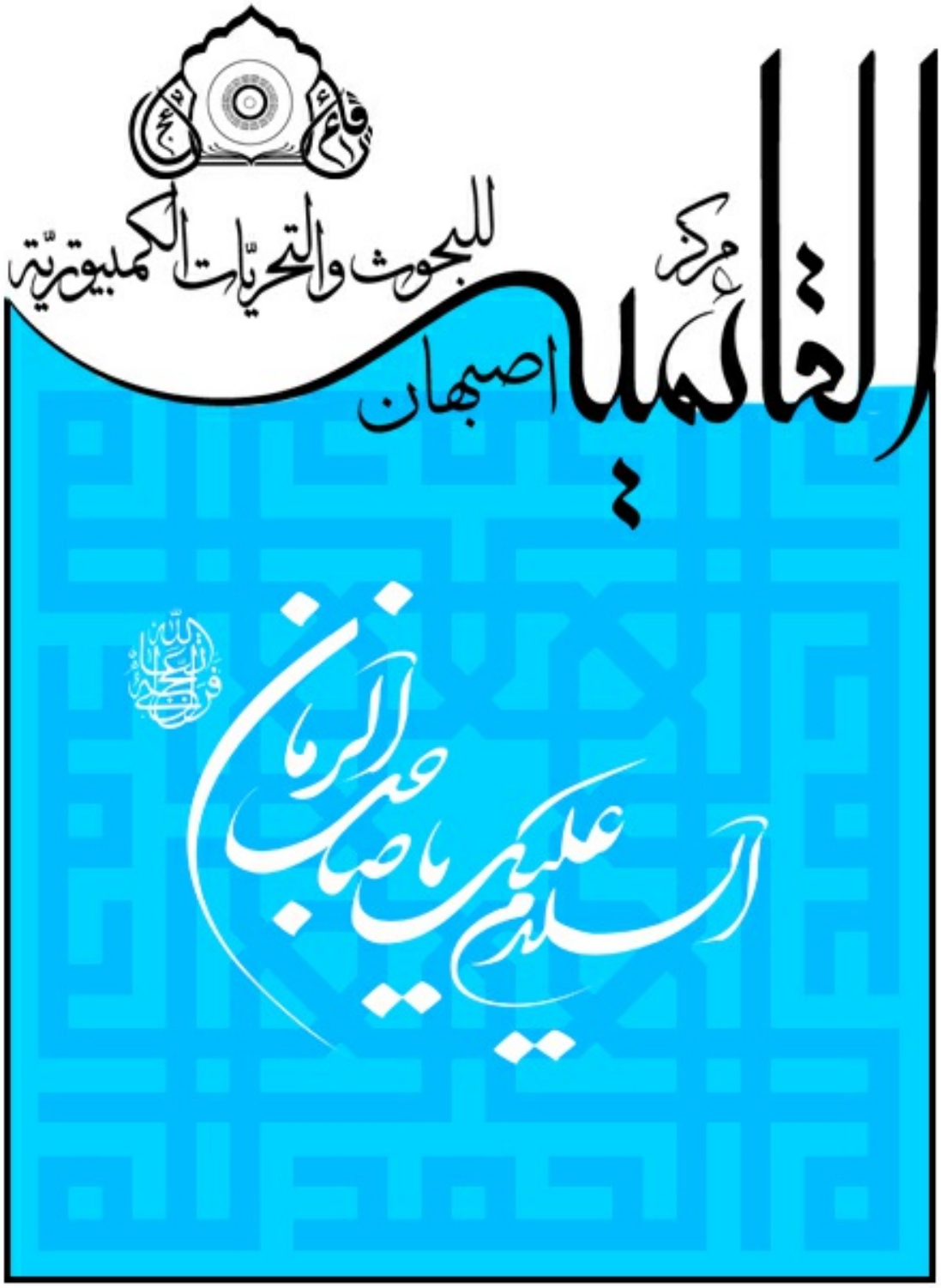

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

السقيفة

بقلم المغفور له
الامام المجاهد الشيخ محمد رضا المظفر

بسم الله الرحمن الرحیم

السقيفه

كاتب:

محمد رضا مظفر

نشرت في الطباعة:

انصاريان

رقمي الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس 5

السقيفه 8

اشارة 8

اشارة 8

مقدمات التحقيق 16

اشارة 16

تقديم بقلم: الدكتور محمود المظفر 16

مقدمة المؤلف 17

اشارة 17

1 تأثير العقيدة علي المؤرخ 24

2 اضطراب التاريخ 25

3 خطة الكتاب 27

تمهيد 31

الفصل الاول: مَوقِف النَّبي تجَاه الخَلافَة.. 39

اشارة 39

(1 هل كان يعلم بأمر الخلافة ؟) 40

2 هل وضع حلا للخلاف ؟ 41

3 ايكال الامر الي اختيار الأمة 43

4 لا نص في قاعدة الاختيار 52

5 اختلاف امتي رحمة 54

6 الاجماع علي قاعدة الاختيار 56

7 النص علي أبي بكر 60

8 النص علي علي بن أبي طالب 67

الفصل الثاني: تدبير النبي لمَنع الخِلاَف.. 83
اشارة 83
(أ بعث اسامة) 84
ب ائتوني بكتف و دواة 92
الفصل الثالث: بيعَة السقيفة.. 103
اشارة 103
(1 الدوافع لاجتماع السقيفة 104
2 نفسية الأنصار 107
3 الأنصار حزبان 111
4 هل مات النبي محمد...؟ 117
5 وصول النبأ باجتماع الأنصار 128
6 تأثير دخول المهاجرين في اجتماع الأنصار 132
7 تأثير خطب أبي بكر علي المجتمعين 134
8 نقاش المهاجرين و الأنصار 141
9 المهاجرون يربحون الموقف 145
10 - النتيجة 149
الفصل الرابع: عَلي مَع الخلفاء.. 153
اشارة 153
(1 - الافتيات علي الامام) 154
2 رأيه في بيعة السقيفة 155
3 الموقف الدقيق 158
4 سلوكه مع الخلفاء 164
علي هامش السَّقيفَة 172
نص رسالة الاستاذ عبد الله الملاح حول كتاب السقيفة 179
نص رسالة الشيخ المظفر رداً علي رسالة الاستاذ الملاح إلي حضرة الأخ الفاضل عبد الله الملاح المحترم 191

اشارة 191
البحث الأول 192
في البحث الثاني 201
في البحث الثالث 202
في البحث الرابع 204
في البحث الخامس 205
في البحث السادس 208
في البحث السابع 212
أهم مصادر الكتاب 215
تعريف مركز 218

السقيفه

اشارة

سرشناسه : مظفر، محمدرضا، 1964 - 1904

عنوان و نام پديدآور : السقيفه / محمدرضا المظفر. ويليه علي هامش السقيفه / محمود المظفر

مشخصات نشر : قم : موسسه انصاريان ، 1415ق . = 1373.

مشخصات ظاهري : ص 207

يادداشت : چاپ سوم : 1421ق . = 1379

يادداشت : چاپ چهارم : 2004م . = 1424ق . = 1382

يادداشت : كتابنامه به صورت زيرنويس

عنوان ديگر : هامش السقيفه

موضوع : سقيفه بني ساعده

موضوع : مظفر، محمدرضا، 1964 - 1904. السقيفه -- نقد و تفسير

شناسه افزوده : مظفر، محمود. هامش السقيفه

رده بندي كنگره : 45/322PB /م 6س 7 3731

رده بندي ديويي : 254/792

شماره كتابشناسي ملي : م 75-300

ص :1

اشارة

السقيفه

محمدرضا المظفر. ويليه علي هامش السقيفه

محمود المظفر

ص :3

ص :4

بسم الله الرحمن الرحيم

ص :5

الفهرس

ص :6

الفهرس

ص :7

الفهرس

ص :8

مقدمات التحقيق

اشارة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم بقلم: الدكتور محمود المظفر

الاستاذ في كلية الفقه بالنجف الاشرف

يعـد موضوع (السـقيفة) الذي يدور البحث حوله في هذا الكتاب: من اهم الموضوعات و ابعدها اثرا في تاريخنا الاسـلامي حيث تشابكت حوله آراء المؤرخين و الباحثين العقائديين، و امتد فيها الجدل واسعا بينهم.. باعتباره (فتنة) وقي الله المسلمين شرها _ علي حد قول بعض اطرافها او باعتباره (انقلابا) تطبيقا لما جاء في قوله تعالي: (أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلي أَعْقابِكُمْ).

و لذلك كان لهذا الموضوع الخطير الذي عالجه عمنا الراحل (الرضا) قدس الله نفسه الزكية في كتابه الفريد المذكور آثاره و صداه البعيد في حينه بحيث صار محورا للنقد و التعليق و مثارا للمناظرات:

فقد صدر علي اثره عن مطابع مصـر كتاب (رد علي السـقيفة) منسوبا الي عبد الله الحضـرمي.. تناول فيه بالرد علي كتاب (السقيفة) بشكل جانب فيه الموضوعية و اصول البحث و المناظرة.

ثمّ صـدر ردا عليه الكتاب الموسوم ب (رد علي السـقيفة) لمؤلفه السـيد القزويني احـد اعلام البصـرة الـذي تولي فيه باسـهاب مناقشة الرد المذكور و معالجة موضوعاته المختلفة.

كما ظهر بعدئـذ (كراس) بعنوان (علي هامش السـقيفة) و هو الـذي احتوي ما قـدمه السـيد عبد الله الملاح البحاثة الموصـلي الي الشـيخ المؤلف من اسئلة و ملاحظات، و ما توفر عليه المؤلف من اجابات و ايضاحات لها.

لقـد كان من رغبتنا ان نقوم بجمع الاصل و الردود المذكورة مع ما كتب من ايضاحات او تعليقات رددتها بعض الكراريس و المجلات في مجلـد ضـخم واحـد، يعرض المشـكلة محررة باقلام اطرافهـا.. بيـد ان محاولـة تستر مؤلف كتاب (رد علي السـقيفة) وراء اسم عبـد الله الحضـرمي المذكور الذي لا واقع له فيما ظهر لنا، الامر الذي يتطلب اسـتجازة صاحبه الحقيقي في اعادة نشـره، مضافا الي ان المؤلف نور الله ضـريحه لم يشأ في حينه ان يعلق علي واحد من تلك الردود او التعليقات خلا تلك الاسـئلة و الاسـتفسارات التي وجهها اليه الاسـتاذ الملاح و التي اثرنا الحاقها مع اجوبتها في آخر الكتاب.

ان هـذا و نحوه دعانا بالفعل الي العدول عن تحقيق فكرة المجمع هذه، مفضـلين اعادة نشـر الكتاب ملحوقا به الهامش المذكور وحده لما احتواه هذا الهامش من اسئلة و اجوبة قد تساعد كثيرا علي توضيح و تعميق بعض مسائل الكتاب.

علي اني لا اجـد في هـذا الحين اكثر ثمرة و عطاء من التوسع في نشـر هـذا الكتاب نفسه و تعميمه بين الفئات المتطلعـة الي هذا النوع من الدراسات التحليلية و الموضوعية لذلك بودر باعطاء الاجازة لنشـره هذه المرات العديدة التي جاوزت السـبع بما فيها هذه الطبعة.. سواء ما نشر منه في لغته الاصلية او فيما ترجم الي اللغات الاخري من فارسية و اوردية.

هدانا الله تعالي جميعا سواء السبيل و شد من أزرنا كامة اسلامية واحدة تسعي وراء الحقيقة.

النجف الاشرف

17 ربيع الاول 1400 ه.

محمود الشيخ محمد حسن المظفر

مقدمة المؤلف

اشارة

كان المجمع الثقافي الديني لمنتدي النشر قد اشرف

علي نشر الكتاب في طبعته الثانية، و قد سجل هذه

الكلمة القيمة التي نعيد نشرها في هذه الطبعة معتزين

بها.

1

موضوع هذا البحث قديم جدا و قد سبق ان عالجته عشرات الاقلام في مختلف العصور و كان مسرحاً لكثير من عواطف الكتاب تلاعبت فيه بأساليبها الخطابية التي لا يراد بها غير تركيز عقيدة اصحابها من طريق اللف و الدوران و لم يسلم من آفاتها الا القليل.

و علي كثرة من كتب فيه في عصرنا الحاضر لم اجد في الغالب من اخضعه للتطور فغير في مناهج البحث، و جدد في طريقة الاستنتاج و بدل في اساليب العرض الي ما يلائم

ص:9

اذواق العصـر فكانت حاجته كبيرة الي من يعالجه معالجـة موضوعيـة مجردة من ناحيـة، و يأخـذ بيـده الي حيث يرجي له من التطور الذي تقتضيه مناهجنا العلمية الحديثة من ناحية اخري.

و اشـتدت الحاجـة قبل عدة من سـنين حين كثر البحث في هذا الموضوع كثرة تلفت اليها الانظار و حين ازدحمت عليه العواطف فأساءت اسـتغلاله و تركته عرضـة لاحـداث و مشاكل اجتماعيـة يـذكر الكثير من القراء مـدي مفعولها في هـذه الاوساط و كان لا بـد لهذا الطغيان العاطفي من احداث رد فعل في نفوس بعض الباحثين المجردين ممن تهمهم رسالتهم العلمية قبل كل شيء.

و كان سـماحة شـيخنا العلامـة المظفر مؤلف هـذا الكتاب في طليعة اولئك الباحثين كما كان كتابه هذا نتيجة لرد الفعل الذي احدثه ذلك الطغيان.

2

اما الكتاب فقـد وفق في عدة نواحي وُفق في نظرته لبحثه نضـرة موضوعية خالصة لا يلمس فيها للمؤلف أية عاطفة و لا يدرك فيها أي تحيز و اذا قـدر له ان ينتهي في بحثه الي حيث تنتهي عقيدته المذهبية فليس ذلك الا لان منهجه العميق انتهي به الي هذه النهاية، و وفق في منهجه العلمي الـدقيق القائم علي التماس ملابسات شتي القت كثيرا من الاضواء علي هـذه الحادثة التاريخية بالاضافة الي ما عرض من النصوص الواردة فيها خاصة ناقدا لها جميعا نقدا دلاليا دقيقا مجليا مفاهيمها

ص:10

علي حسب ما يقتضيه الفن معتمدا في ذلك اصح الطرق الموصلة اليها مختارا من الاحاديث ما اتفق عليه الثقات من ائمة الحديث لدي الطائفتين المسلمتين، و وفق اخيرا في اسلوبه في العرض و تنظيمه لبحثه تنظيما فنيا ينتهي بك الي نتائجه من اقرب الطرق و ايسرها ببيان رائع جذاب.

و الحق ان الكتاب يعتبر مرحلة تطورية مهمة اوصل بها المؤلف هذا البحث الي عصره الذي يعيش فيه و هو من الكتب القلائل في هذا الموضوع التي ادت وظيفتها كاملة.

3

و لعل القارئ الكريم يود ان يعرف مدي اثر هذا الكتاب في نفوس الباحثين و المعنيين بهذه الشئون و كيف استقبلوا بحوثه الحرة و إلي أي مدي كان اقبالهم عليه او اعراضهم عنه، و الحقيقة ان الناس لم يتفقوا عليه بحال فقد انقسموا حوله طائفتين رضيت عنه اولاهما و حمدت لمؤلفه اسلوبه المجرد و اطرته اطراء عاطرا و خير من يمثلها من الاعلام سيد هذا الفن في عصرنا الحاضر سماحة آية الله العلامة الكبير السيد عبد الحسين شرف الدين مؤلف كتاب المراجعات و غيره مما يعتبر فتحا في البحوث الكلامية التي خضعت للمنهج العلمي في عصرنا الحاضر فقد كتب حفظه الله الي مؤلفه كتابا يعرب فيه عن رأيه فيه و في مؤسسته التي يرأسها، نذكره هنا بنصه اعتزازا بثقته بالكتاب و اكبارا لرأيه

ص:11

بالمؤسسة التي احتضنها المؤلف و اعتبر بحق، رائدها الاول و حافظ سيرها و توازنها منذ تأسيسها حتي اليوم و هذا نص الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام علي امير المؤمنين و سيد الوصيين و رحمة الله و بركاته

ايد الله شيخنا العلامة البحاثة المجاهد الشيخ محمد رضا المظفر و اعز اقطاب مجمعه الثقافي الديني لمنتدي النشر و سلام الله عليه و عليهم وحي الله منهم ارواحا طيبة طاهرة تصدع بالحق في منتداه الكريم.

و بعد فقد اخذت هديتكم القيمة كتاب (السقيفة) بعين الشكر ثمّ استشففت فيه اثر الجهد النبيل الجدير بالمؤسسة العلمية الطالعة بما انتظمه من سلامة البحث و سمو التفكير و حسن الأداء علي وجه سد فراغا في المطبعة النجفية.

و كنا فيمن عقد الامل (بالمنتدي) يوم تأسيسه و ناط به الرجاء ان يكون له الاثر المحمود في توجيه الناشئة الدينية و بناء الجيل الطالع و تجديد ميراث النجف في بعث يلائم التطور الحاضر و يماشيه في مداه الطويل و وسائله المنوعة و ذلك اني رايت من قديم ان الهدي لا ينتشر الا من حيث ينتشر الضلال و علي هذا رجوت ان تكون المطبعة و تنويع المنهج

الدراسي و احياء العلوم الاسلامية المذخورة كل هذا من رسالة منتداكم المرجو و لم تخلفوا الظن و لله الحمد فان الذي يبلغنا من اخباركم السارة و آثاركم النافعة يثلج الصدر و ينعش الامل و ليس شيء كأثركم الاخير هذا السفر الجليل داعيا الي الاطمئنان و الاستبشار بمستقبل نير يضع النجف الاشرف في مكانه الاسمي و محله الارفع و السلام عليك و رحمة الله

عبد الحسين شرف الدين

و لهذا الكتاب الكريم نظائر من الكتب من اعلام الباحثين الذين يألفون هذا النمط من التفكير تركنا ذكرها الآن اكتفاء بهذه الرسالة الجليلة. أما الطائفة الاخري التي لم يبد انها ارتاحت لهذا الاسلوب من البحث و اعتادت علي مواجهة مثله بأعصاب متوترة توجهها العاطفة حسبما تريد فخير من يمثلها مؤلف كتاب (رد علي السقيفة) و هذا الرد اذا استثنينا منه ما حشد فيه مؤلفه من الفاظ السباب الخارجة علي آداب البحث و التي يفزع اليها العاطفيون عادة اذا اعوزتهم الحجة لم يخلص لنا منه الا القليل.

و هذا القليل وضع في حضرته للنقد و الجدل مقياسا لا نتفق عليه معه بوجه و ما ادري الي أي حد يتفق معه الآخرون من باحثي قومه عليه فهو يري كما يبدو من مجمع الكتاب ان المقياس لديه في كل شيء يتعلق بالموضوع هو

ميوله الخاصة، فالاحاديث التي لا تتفق معها احاديث موضوعة و ان اجمع ثقات المحدثين من الطرفين علي تصحيح اسانيدها مع ان بعضها متواتر لا يشك بصدوره عن النبي (صلي الله عليه و آله) بحال، و الاحاديث التي توافق هواه صحيحة و ان حكم ارباب الجرح و التعديل من قومه بوضعها و شخصوا الواضع و عينوه، و مداليل الاحاديث يجب ان تصرف عن ظواهرها اذا لم تؤيده و ان خرج الكلام علي الاصول الموضوعة في هذا الفن الي آخر ما هنالك مما لا يقتضي التعرض له في صدور هذا الكتاب علي ان هذا ليس غريبا علي حضرته ما دام يواجه التأريخ بهذه الذهنية، و لكن الغريب من مجلة مصرية تنطق بلسان هيئة محترمة قرأ محرروها الرد و لم يقرءوا الاصل فاستعاروا منه اسلوبه في الشتم و نحوا علي الكتاب و صاحبه باللوم و التقريع مع ان (التبين) كان اليق بهم و بمكانتهم العلمية لئلا يصيبوا قوما بجهالة فيصبحوا علي ما فعلوا نادمين.

4

و علي أي حال فإن لجنة المجمع الثقافي الديني لمنتدي النشر لم تجد ما يصلح للرد علي هذا و امثاله اكثر من السماح للناشر الفاضل الشيخ محمد كاظم الكتبي باعادة طبعته للمرة الثانية و تمكين القارئ الذي لم يقدر له الحصول علي نسخة منه من الاطلاع عليه تاركة للقراء وحدهم حق الحكم له او عليه، و لا يفوتنا ان نشكر الناشر علي ما بذل في

نشره من جهد و نسأله تعالي اخيرا ان يلهمنا جميعا الصواب و السداد.

5 رمضان سنة 1372 ه

ص:15

1 تأثير العقيدة علي المؤرخ

بسم الله الرحمن الرحيم

و له الحمد علي سوابغ آلائه. و الصلاة و السلام علي نبيه و آله و صحبه النجباء.

من اشق الفروض علي المؤرخ ان نفض عن ردائه غبار التعصب لنزعاته الشخصية من دينية أو قومية أو وطنية و نحوها. بل لعله من شبه المستحيل ان ينزع من قلمه لحاء عقائده و أهوائه. فان النفس تلهم عقل صاحبها التصديق بميولها و عواطفها، و كثيرا ما تقف سدا منيعا بين بصيص عقله و الحقيقة، و إن حاول ان يخرج من نفسيته التي ورثها و نشأ عليها. و يتحلل فكره من أسرها و سجنها ليحلق في جو الحق الطليق. و اذا رأيت طائرا أسعده الحظ فتحرر من سجنه فالحقه اذا كنت حرا مثله، فستجد ان جناحه مثقل بغبار

ص:16

السجن، و ارجله لا تزال متأثرة بالقيود، فيختلج في رفيفه و يتثاقل في طيرانه، و قد يهوي أحيانا الي الهوة غير مختار.

هـذا من حاول ان يتحرر من شخصـيته الاعتقاديـة و تأثيرها عليه. اما من يؤرخ لأجل غـذاء عقيـدته، أو يؤلف ارضاء نفسه أو محيطه، فاقرئه ألف سلام! و أرجو من الله تعالي ان يوفقني لئلا أكونه.

و أظنني غير مبـالغ اذا قلت: إن المؤرخين من السـلف علي الأكثر و أقول (علي الاكثر) اذا أردت الاحتياط في القول كانوا من النوع الثاني. بـل حتي المؤرخين النوع الثـاني. بل حتي المؤرخين في عصـرنا لا يخرجون عن هـذه الطريقـة علي الغالب. و إن تظاهروا بحريـة الرأي و انصـاف الواقع و الحق، فظهر جليـا بـالرغم علي المؤرخ نزعته علي قلمه و يتماشـي تـأريخه و تـأليفه مع الروح التي يحملهـا، فيختـار من الاحاديث ما لا يفسـد عليه رأيه، و لا يصـدق إلا بما يجري علي هواه. فكم يكون الرجل عنده كذابا وضاعا، لأنه نقل ما لا يتفق و مبادئه، و كم يكون عنده صدوقا لأنه لم يرو إلا أحاديث تؤيد طريقته.

2 اضطراب التاريخ

و هناك بلاء مني به التاريخ الاسلامي خاصة حماه

بالغموض و الشك عن الباحثين المنصفين. ذلك كثرة ما لفقه الوضاعون و الدساسون في القرون الاولي من الهجرة، لا سيما القرن الاول فاشاحوا بوجه الحقائق و قلبوها رأسا لعقب.

و ليس أدل علي ذلك من التناقض و الاضطراب الموجود في اكثر احاديث الوقائع التاريخية، فضلا عن الاحكام الشرعية، ما عدا الاختلاف في خصوصيات الحوادث و الاحكام مما يذهب بالاطمئنان الي كل حديث. و لا اظن ناظرا في التاريخ لا يصطدم بهذه الحقيقة المرة. و لا يمكن ان يحمل كل ذلك علي الغلط في النقل و الغفلة في الرواية.

و لنعتبر بأهم حادثة يجب اتقانها عادة، مثل يوم وفاة الرسول صلي الله عليه و آله و سلم، فانك تعلم كيف وقع الاختلاف في تعيين اليوم من الشهر بل في تعيين الشهر. و هذا أمر شهده جميع المسلمين و هزهم هزا عنيفا فلا يمكن ان يفرض فيه النسيان او الغفلة. فما ذا ننتظر بعد هذا من تاريخ حروبه و احواله، و من نقل اقواله و احاديثه لا سيما فيما يتعلق بالشئون التي اختلف فيها المسلمون فتحاربوا عليها، او تشاتموا لاجلها فكفر بعضهم بعضا.

و لعل اسباب الوضع ثلاثة اشياء:

1 حب تأييد النزاعات و العقائد، فيغري علي الكذب و لعل ذلك يخدعه بأن الرأي الذي يعتقده حقا يسوغ له الوضع، ما دام الموضوع في اعتقاده هو او شبيه به.

2 حب الظهور و التفوق فقد كان للمحدث في العصور الاولي المنزلة العظيمة بين العامة، و بالحديث كان التفاخر و التقدم، و يمتاز من كان عنده من الحديث ما ليس عند الناس، فأغري ذلك ضعفاء العقول و عبدة الجاه، فاحتالوا للحديث من كل سبيل، حتي من طريق الوضع و التزوير.

3 ما بذله الامويون و اشياعهم من كل غال و رخيص للمحدثين علي وضع ما يؤيد دسيستهم و ملكهم و اهواءهم، و لا سيما فيما يحط من كرامة آل البيت، و فيما يرفع من شأن اعدائهم و خصومهم، فكثرت القالة يومئذ و اتسع الخرق، حتي طعن الاسلام طعنة نجلاء لم يبرأ منها الي يوم الناس هذا.

3 خطة الكتاب

فلذا و ذاك أصبحت، و انا كثير الشك و التحفظ في جملة مما ينقله المؤرخون و المحدثون، و أقف حائرا عند كل حديث يتعلق بالخلافات المذهبية خاصة.

فكيف بي، و انا اقحمت نفسي في البحث عن اول حادث في الاسلام نشب فيه الخلاف بعد الرسول و انشق فيه المسلمون طائفتين ذلك حادث (السقيفة)!.

ص:19

كيف بي، و قد وقفت بين نفس تطالبني بأن ارضـيها في عقيدتها، و بين تأريخ هذا حاله قد احيط بالشكوك و الشبهات و قد كتب في الحادثة الطرفان، فشرقت طائفة و غربت اخري.

و لكني اريـد الآن ان أتحرر من عقيدتي و اتمرد علي نفسـي فأقف حرا علي نشـز من الانصاف و التروي، و أمسح عن عيني غبار التعصـب لأري تلك الحقيقة الواحدة و هي واحدة في كل شيء فهل اراني استطيع علاج ما بي ؟ هذا ما أشكه في نفسي و واجب علي الا اثق بها، فما السبيل إذن ؟ ثمّ ما ذا سأصنع في علاج الناحية الاخري: ناحية التاريخ المظلم ؟

انها لمزلة للقدم، و لها ما بعدها؟.

دعني أرجع ادراجي ؟.

لكنه الهوي في النفس و عزيمة صحت من عهد المعمي من عهد ليس بالقريب لا كشف لنفسي، او لغيري اذا جاء لي ذلك اللغز المعمي، و من يستطيع ان يدافع ذلك من نفسه.

علي اني اجد في بحثي سلوة و متعة يلذ لي فيه ان المس بعض الحقائق عن بصيرة و متعة اخري ان اسجله انتاجا باقيا للناس.

و ايضا لما كنت احاول ان صدقتني المحاولة ان احيط باسـرار الحادثة و فلسـفتها و نتائجها، فلا يكون ما اكتبه تأريخا مجردا جافا و احدوثة خالية من ذوق، فان ذلك يستحثني علي

المضي في البحث و يشجعني علي اخراجه للناس. و ان كان فيه صعوبة اخري قد تقحمتها وجب الي عبؤها الثقيل.

و بعد التفكير و المحاولات مدة طويلة هديت الي شـيء واحد بالاخير ارجو ان ابتعد بسببه عن تأثير العواطف و لعبها بالعقول و اقترب من الحق و الصـدق، هو ان اكثر من مراجعاتي لمؤلفات من اخالفه في الرأي من ناحيـة مذهبيـة، بل اجعلها هي المصدر في البحث و ظني ان بهذا سيحصل التفاعل من الجانبين: عقيدتي و هذه المصادر، لينتج ما قد يسمونه (الوسط في الرأي) او تكون الحقيقة قد اهتديت اليها بهذه الحيلة، إن طاوعتني.

و قد اخذت علي نفسـي في هذا الكتاب ان اسجل خلاصة مطالعاتي و محاكماتي التاريخية، بعد ان سبرت كثيرا من المصادر القديمة التي اشـرت اليهـا آنفـا، فـاذا كنت اذكر حـديثا او حادثا تأريخيا توافرت المصادر علي ذكره و توثيقه، فاني لا اذكر معه تلك المصادر توفيرا علي القارئ خشية إعناته بدون جدوي، الا بعض الاحاديث التي ينفرد بها مصدر او مصدران، فاني اضطر اضطرارا الي ذكر المصدر في التعليقة تنويرا لذهن القارئ غير المتتبع.

و كل جهدي ان اضع بين يدي القراء صورة مصغرة مما اهتديت اليه من افكار، ارجو ان تكون خالصة من تأثير

العواطف و النزعات حرة هي الحق كله او قريبة من الحق، و بالله التوفيق و منه التسديد.

شهر رمضان 1353 هجرية

المؤلف

محمد رضا المظفر

ص:22

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم في عام 11 للهجرة يفعل الدهر فعلته الأولي، فيقلب صفحة من صفحات التاريخ الاسلامي المجيدة كتبت بأحرف من النور الالهي. كلها ايمان و صدق، جهاد و تضحية، فخر و قوة، عز و مجد، عدل و رحمة، اخوة و انسانية.

يقلب الدهر هذه الصفحة الناصعة بالخيرات و الفضائل، بأفول ذلك النور المقدس من الأرض، فيستقبل بالمسلمين صفحة من كتابه التكويني مشوشة الخط قال عنها الكتاب التشريعي: (أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلي أَعْقابِكُمْ ...). لا شك عند من يعترف بالقرآن الكريم وحيا إلهيا لا ينطق صاحبه عن الهوي، في ان هذا الحادث التاريخي العظيم بموت منقذ الانسانية، كان حدا فاصلا بين عهدين يختلفان كل الاختلاف: ذاك اقبال بالنفس و النفيس علي الحق تعالي، و هذا انقلاب عنه علي الأعقاب. إذن نحن الآن أمام أمر واقع:

مات النبي صلي الله عليه و آله و سلم!

ص:23

و لا بد أن يكون المسلمون (كلهم ؟ لا أدري الآن) قد انقلبوا علي اعقابهم.

و لكن... بأي حادث كان مظهر هذا الانقلاب ؟.

***

اعطني من نفسك أيها القارئ و فكر بحرية، و التمس لي حادثا ذا بال وقع بعد وفاة صاحب الرسالة مباشرة، فنضح برذاذه جميع المسلمين، فهل تجد غير حادث (السقيفة)؟ ما أعظمه من حادث! و هل تدري ان الشيعة تفسر الآية الكريمة به ؟.

فاذا اردنا الآن أن نبحث عن (السقيفة)، فإنما نبحث عن اعظم حدث في الاسلام، و اول حوادثه بعد الوفاة، له علاقته الخاصة بالآية الكريمة، أ تفسر به أو لا؟.

و علي هذا الاساس قلت في المقدمة شرق فيها قوم و غرب آخرون فدخلت العقائد و الأهواء في سرد الحادثة، فكانت ذات ألوان و وجوه يكد فيها الباحث، و يجهد مستهدف الحقيقة.

***

و ما علي لو أدعي قبل الدخول في بحث السقيفة ان الآية الكريمة تفسر بحوادث الردة التي وقعت في خلافة ابي بكر.

ص:24

و لكني لاـ اطمئن الي هـذا الاحتمـال، مـا دامت الآيـة تشـعرنا بـأن الانقلاب يقع بعـد موت النبي مباشـرة، و ما دامت هي خطاباً لجميع المسلمين، و اهل الردة كيفما فرضناهم هم اقل القليل من المسلمين، بل في العدوة القصوي منهم.

و فوق ذلك نجـد ان عمدة من نسـميهم بأهل الردة هم المتنبئون و اشـياعهم، كمسـيلمة و اتباعه، و طليحة و اوليائه. و هؤلاء كانوا في عهد النبي و استغلظ امرهم بعده، ما عدا سجاح التميمية، و ما كان لها كبير شأن و قد اندمجت بمسيلمة.

اما الأسود العنسي فقد قتل في حياة الرسول و لازم انصاره طريقته بعده. و علقمة بن علاثة ارتد في زمانه صلي الله عليه و آله. و مثله ام رفل سلمي بنت مالك و تابعوها.

أ فيصـح ان نقول: إن هؤلاء انقلبوا علي الاعقاب بعـد النبي، و كان الخطاب بالآية لهم ؟ اللهم ان هذا يأبي الانصاف ان يصدق به، عند من كان له شيء من حرية الرأي و صحة التفكير.

و مالك بن نويرة(1).

مالك وادع سجاح (و الموادعة. المتاركة و المسالمة علي ترك الحرب كما كان كعب القرضي موادعا لرسول الله).

و ليست الموادعة من الردة في شيء و اكثر من ذلك إنما كانت

1- (1) و به يضرب المثل المشهور: (فتيً و لا كمالك).

منه لمصلحة المسلمين، ليرد سجاح عن غزوهم في تلك الأصقاع النائية عن مركز المسلمين. و كان الذي أراد.

و إن كانت تلك الموادعة ذنباً، فقد اظهر هو و قومه التوبة بعد ذلك، كما صنع وكيع و سماعة، و هما وادعا سجاح ايضا، و قبل المسلمون المحاربون توبتهما.

و هذا ابو بكر يدين مالكا إذ قتله خالد بن الوليد و خلا بزوجته ليلة قتله، فهل تفسر بهذا آية الانقلاب ؟.

و لا ذنب لمالك إذ عد من اهل الردة إلا أن قاتله بطل المسلمين يومئذ و قائدهم. و حقيق عليهم ان يدافعوا عن فعلته و يبرروا عمله. فليكن مالك مرتدا يستحق القتل! و ما يهمنا ان نشين مالكا بما يستحق و بما لا يستحق، ما دامت كرامة خالد محفوظة مصونة من النقد!.

عمر بن الخطاب يريد ان يؤخذ خالد بقتله لمالك و نزوه علي زوجته و ابو بكر يعتذر عنه (انه اجتهد فأخطأ). و ما الخطأ علي المجتهدين بعزيز. و هذا من اوليات ابي بكر. إذ يجعل الاجتهاد عذرا للمخالفة الصريحة للقانون الاسلامي.

و ابو بكر لم يقل لمتمم اخي مالك انه ارتد فقتل بل قال له: ما دعوته و ما قتلته، لما قال له متمم من ابيات:

ادعوته بالله ثمّ قتلته لو هو دعاك بذمة لم يغدر

نعم! التاريخ ينزه مالكا. و قضي الدفاع عن خالد ان يحكم بعض الكتاب في هذا العصر بكفر مالك و ارتداده!.

***

و من هم أهل الردة غير هؤلاء؟.

مانعو الزكاة.

مانعو الزكاة ؟. من هؤلاء بأسمائهم و قبائلهم! ليت احدا يرشدني اليهم! فقد وجدت التأريخ يجمجم في ذكرهم فيحصر، و يروح و يغدو فلا يجد غير المتنبئين و اشياعهم. و أبو بكر لما قال كلمته المشهورة: (لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه)، فانما قالها عند ما جاء وفد طليحة المتنبئ المتقدم ذكره يطلبون الموادعة علي الصلاة و ترك الزكاة، لا في قوم غير المتنبئين.

و اذا كانوا و ربما كانت بعض القبائل المجهولة امتنعت عن الزكاة فهل العصيان بترك واجب، و هم يقيمون الصلاة يكون كفرا و ارتدادا؟ بأي مذهب و بأي دين ؟ فليتأول المتأولون ما شاءوا.

و لم يعرف عنهم انهم أنكروا وجوب الزكاة بقول، حتي يكونوا من منكري ضروريات الدين الذين يعدون في الكافرين المرتدين. و أكثر ما عرف عنهم اذا كان لهم من منكري ضروريات الدين الذين يعدون في الكافرين المرتدين.

و أكثر ما عرف عنهم اذا كان لهم وجود غير المتنبئين انهم امتنعوا عن أدائها.

و تغلق دعوي المدعي أن هؤلاء أنكروا بيعة ابي بكر التي كانت عن غير مشورة من المسلمين كما صرح به عمر بن الخطاب، فلم يعترفوا له بامامة و ولاية حتي يؤدوا له الزكاة. و لعلهم كانوا يطالبون بخلافة من كان النص من النبي علي خلافته، فأهمل مطالبتهم التأريخ.

هذه احتمالات لا يفندها التأريخ و الاعتبار و ادعتها الشيعة فيهم، فما لنا بتكذيبها من برهان، فالأحسن لنا ألا نعترف بوجودهم كما أهمل التأريخ أسماءهم و قبائلهم.

و مهما كان الامر، فان استطاع الكاتب ان يثبت الانقلاب بأول حدث في الاسلام، فلا يهمه ما ذا سيكون شأن الحوادث اللاحقة، بل يستعين علي تفسيرها بتفسير الحادث الأول، و كفي!

و أجدني مضطرا قبل كل شيء الي ان اقف مع القارئ علي ما صنعه النبي صلي الله عليه و آله، من حل للخلاف بعده: إما في وصية باستخلاف أحد، او في قاعدة مضبوطة يرجعون اليها، او انه اهمل الأمر و تركهم و شأنهم، لأن هذا البحث له علاقة قوية في موضوع بحثنا، يتوقف عليه تفسير كثير من الحوادث.

إذن سنعقد الكتاب علي اربعة فصول:

الفصل الاول في موقف النبي تجاه الخلافة

الفصل الثاني في تدبيره لمنع الخلاف

الفصل الثالث في بيعة السقيفة

الفصل الرابع موقف علي بن ابي طالب.

ص:29

الفصل الاول: مَوقِف النَّبي تجَاه الخَلافَة..

اشارة

ص:31

(1 هل كان يعلم بأمر الخلافة ؟)

هـل تجـد من نفسـك الميـل الي الاعتقاد بأن النبي صـلي الله عليه و آله كان لا يعلم بما سـيجري بعـده: من خلافات و حوادث من اجل الخلافة ؟ و هل تراه كان غافلا عما يجب في هذا السبيل ؟.

إذا كان لك هذا الميل فلا كلام لي معك، و ارجو منك يا قارئي العزيز علي أن تلقي الكتاب عندئذ عنك و لا تتعب نفسك بالاستمرار معي الي آخر الحديث، لاني افرض قارئي مسلما يؤمن بالنبي و رسالته، و يعرف من تأريخه ما يكفيه في طرد هذا الوهم.

فان من يمت الي الاسلام بصلة العقيدة لا بد ان يثبت عنده علي الاقل ان صاحبه صرح في مقامات كثيرة بما ستحدثه امته من بعده فقد قال غير مرة: (ستفترق امتي علي ثلاث و سبعين فرقة فرقة ناجية و الباقون في النار).

و اكثر من ذلك انه لم يسـتثن من اصـحابه إلا مثل همل النعم، ثمّ هم يـدخلون النار بارتدادهم بعده علي ادبارهم القهقري، او يردون عليه الحوض فيختلجون بما احدثوا

ص:32

بعده. و في بعض الاحاديث: (فيقال لي: إنهم لم يزالوا مرتدين علي اعقابهم منذ فارقتهم)(1)

و اخبرهم انهم يتبعون سنن من قبلهم شبراً بشبر و ذراعا بذراع، حتي لو دخلوا جحر ضب لتبعوهم.

و (الخلافة) امر كانت تحدثه به نفسه الشريفة، و يشير اليها انها ستكون ملكا عضوضا بعد الثلاثين سنة. و ثبت انه قال: (هذا الأمر لا ينقضي حتي يمضي اثنا عشر خليفة كلهم من قريش). و قال: (من لم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية). و قال... و قال... الي ما لا يحصي.

و سيرته و الأحاديث عنه و ما اكثرها تشهد شهادة قطعية علي ما كان من اختلاف امته، و علي أن الخلافة و الامامة من اولي القضايا التي كانت نصب عينيه.

---

2 هل وضع حلا للخلاف ؟

إذن كان صلي الله عليه و آله و سلم عالما بأن الدهر سيقلب لأمته صفحة مملوءة بالحوادث و الفتن، و الخلافات و المحن، و ان لا بد لهم من خلافة و إمارة.

1- (1) صحيح مسلم 8:107 و غيره

فلاـ بـد ان نفرض انه قـد وضع حلاـ مرضـيا لهـذا الامر يكون حـدا للمنازعات و قاعـدة يرجع اليها الناس، لتكون حجـة علي المنافقين و المعاندين، و سـلاحا للمؤمنين، ما دمنا نعتقد انه نبي مرسل جاء بشـيرا و نذيرا للعالمين الي يوم يبعثون، فلم يكن دينه خاصا بعصـره، ليترك امته من بعده سدي من غير راع او طريقة يتبعونها، مع علمه بافتراق امته في ذلك.

و لا يصـح من حاكم عادل ان يحكم بنجاة فرقـة واحدة علي الصدفة من دون بيان و حجة تكون سـببا لنجاتهم باتباعها، و سـببا لهلاك باقي الفرق بتركها.

لنفرض ان الحديث و التأريخ لم يسجلا لنا الحل الذي نطمئن اليه، فهل يصح ان نصدقهما بهذا الاهمال، و نوافقهما علي ان النبي ترك امته سدي، و في فوضوية لا حد لها يختلفون و يتضاربون، ثمّ يتقاتلون، و تراق آلاف آلاف الدماء المسلمة، ساكتا عن اعظم امر مُني به الاسلام و المسلمون، مع انه كان علي علم به ؟.

و لو كنا نصدقها مستسـلمين لكذبنا عقولنا و تفكيرنا، فان الاسلام جاء رحمة لينقذ العالم الاسلامي من الهمجية و الجاهلية الأولي، فكيف يقر تلك المجازر البشرية في اقصي حدودها، تلك المجازر التي لم يحدث التأريخ عن مثلها و لا عن بعض منها في عصر الجاهليين.

فما علينا إلا ان نتهم التأريخ و الحديث بالكتمان و تشويه الحقيقة بقصد او بغير قصد. و لئن لم يكن محمد نبياً مرسلا يعلم عن وحي و يحكم بوحي فليكن علي الاقل اعظم سياسي في العالم كله لا اعظم منه، فكيف يخفي عليه مثل هذا الأمر العظيم لصلاح الأمة بل العالم بأسره مدي الدهر، او يعلم به و لا يضع له حدا فاصلا؟.

و هل يرضي لنفسه عاقل يتولي شئون بلده فضلاً عن امة، ان يتركها تحت رحمة الاهواء و اختلاف الآراء و لو لأمد محدود، و هو قادر علي اصلاحها او التنويه عن اصلاحها، إلا ان يكون مسلوبا من كل رحمة و انسانية ؟ حاشا نبينا الاكرم من جاء رحمة للعالمين و متمما لمكارم الاخلاق و خاتما للنبيين! و قد قال الله تعالي علي لسانه بعد حجة الوداع:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ).

و قد وجدناه نفسه لا يترك حتي المدينة المنورة، اذا خرج لحرب او غزاة، من غير امير يخلفه عليها، فكيف نصدق عنه انه اهمل امر هذه الامة العظيمة بعده الي آخر الدهر، من دون وضع قاعدة يرجعون اليها او تعيين خلف بعده.

3 ايكال الامر الي اختيار الأمة

لنختار الآن لحل هذه المشكلة انه صلي الله عليه و آله

و سلم أوكل امته الي اختيارهم، او الي اختيار اهل الحل و العقد منهم خاصة في تقرير شئون الخلافة. فهل يصح هذا الفرض للحل ؟.

امـا انا ايها القارئ لا اسـتطيع ان اقتنع بأن هـذا الفرض يكون حلا مرضـيا لهـذه المشـكلة، و لعلك انت تري مع من يري ان تعيين الرئيس بالانتخاب من ارقي التشريعات الحديثة و قد سبق اليه الاسلام، فهذا من مفاخره.

فوجب علينا ان نبحث هذه الناحية العلمية بدقة، و املي كما هو مفروض انك تعطيني من نفسك النصف و تفكر معي تفكيرا حرا، بعيدا عن تأثير العاطفة التي تقضي علينا ان نتمسك بهذه المفخرة للاسلام.

و لا ينبغي لنا ان نحاول هذه المحاولة، فربما نلصق به ما ليس له، و لعلها لا تثبت للبحث مفخرة يمتدح بها، فنكون قد نقضـنا غرضنا الذي نريده من إثبات الفضيلة للاسلام بالسبق الي هذا التشريع.

و الـذي ادعيه الآن ان إرجاع الأمـة مـدي الـدهر الي اختيارها في تعيين الرئيس لها هو عين الفوضويـة التي اردنا التخلص منها في البحث السابق، و ليس معناه إلا إلقاء الأمة في اعظم هوة من الخلاف لأحد لها و لا قعر.

ص:36

و سـر ذلـك ان النـاس مختلفون متبـاينون، ليس بينهـم اثنان يتفقان في فكر أو عاطفـة أو ذوق أو عادة أو عمل، حتي التوأمين، إلا من التشابه القريب أو البعيـد من غير اتفـاق حقيقي، كاختلاـفهم في أجسامهم و سـحنات وجوههم، و تشابههم في ذلك. بل الناس مختلفون في كل شيء من دقائق أجسادهم و أخلاقهم و نفوسـهم و عاداتهم فلم يتفق لشخصـين أن يتفقا تحقيقا حتي في بصـمة الأصابع، حتي قيل ان كل فرد من الانسان نوع برأسه.

و عليه، فيسـتحيل أن تتفق أهل بلـدة واحـدة علي حكم واحـد أو عمل واحـد، فضـلا عن أمة كبيرة كالأمة الاسـلامية علي توالي الزمان. و بالأخص اذا كان الحكم مسرحا للعواطف و الأغراض الشخصية و التحيزات كالحكم في الزعامة العامة.

و من هـذا نسـتنتج ان الرأي العام الحقيقي غير موجود أبـدا، بل يسـتحيل وجوده لأيـة امـة في العالم، و من خطل الرأي أن يطلب الانسان تكوين الرأي العام، و توحيد اختيار الأمة بأسـرها لأمر من الأمور، علي ان محاولة ذلك يستحيل أن تسلم من منازعات دموية و اضطرابات شديـدة اذا كـان تكوينه يراد لأـمر ذي شأن، إلا أن يكون هنا حاكم يفصل بين المتنازعين بما له من القوة القاهرة لمخالفيه، كما هو موجود فعلا في الانتخابات الجارية عند الأمم المتمدنة، فان تحكيم الأكثرية ذات القوة الطبيعة خير علاج علي منازعاتهم في الامور العامة.

ص:37

و تحكيم الاكثرية في الحقيقة فرار من محاولة تكوين الرأي العام الحقيقي، بل هو اعتراف باستحالته، و مع ذلك لم يستغن غالبا الرجوع الي الأكثرية ليكون لها الفصل عن ملطفات و مؤثرات اخري تنضم الي قوته الطبيعية، أهمها سلطة الحكومة و القانون العام القاضي بتحكيم الأكثرية الذي أصبح بحكم التقليد لا مسيطرا علي معتنقيه.

و بتوسيط أمثال هذه الأمور تمكن التسوية بين الأكثرية علي رأي متوسط، و إلا فالاتفاق الحقيقي علي تفاصيل الأمور يستحيل حتي في الأكثرية.

و هذا الرجوع الي الأكثرية آخر ما توصل اليه الانسان بعد العجز عن تحصيل الاتفاق الحقيقي و بعد أن فشل البشر علي ممر تلك القرون الطويلة التي انهكته بالتجارب القاسية، فوجد ذلك خير ضمان للسلام في الأمم. و ليس معني ذلك ان الأكثرية لا تخطأ، كيف و الجماعات دائما تفكر بأحط فكرة فيها، و من مزاياها انها خاضعة لسلطان العاطفة، فهي علاج لفضّ المنازعات ليس إلا، لا لضمان تحصيل الرأي المصيب.

و بهذا البيان نخرج الي فكرة ان تعيين الرئيس أو غيره بالانتخاب الذي هو من أرقي التشريعات الحديثة معناه الرجوع الي الأكثرية دائما التي أصبحت من التقاليد المرعية عند الناس في هذا العصر، و هذا لم يسبق اليه الاسلام، و من يدعي ان النبي صلي الله عليه و آله أوكل أمته الي اختيارهم

في تقرير شـئون الخلافـة لا يـدعي انه شـرع قانون الاكثريـة لأنه ليس لهـذه الدعوي شاهد في زبر الأولين، علي انه كما ذكرنا لا يسـلم من الخطأ، فلا يسوغ لنا أن ننسبه الي من لا ينطق إلا عن وحي و لا يريد إلا الحق.

و إذا ادعي انه أوكـل الأمر الي اتفاق أمته و اختيارهم جميعا، فمن خطل الرأي، إلا اذا جوزنا عليه ان يطلب المسـتحيل او تعمـد ايقاع أمته في منازعات دائمية تفضي الي ازهاق النفوس و اضعاف القوي المادية و الأدبية، ثمّ الي ضعف كلمة الاسلام في الارض.

فتلخص ان هذا التشـريع أعني تشـريع تعيين الامام بالانتخاب لا يصح لنا ان ننسبه الي منقذ البشرية من الضلالة الي الهدي الذي لا ينطق إلا عن وحي، سواء فسرناه بالأكثرية او باتفاق الجميع.

***

و مهما حاولنا اصـلاح هذا التشـريع بتفسـير الأمة بأهل الحل و العقد منها خاصة، فلا اجد هذه المحاولة تسلم من ذلك النقص البارز فان اهل الحل و العقـد و كبار الأمـة هم بؤرة الخلاف و النزاع. فان الخاصة مع اختلاف نفوسـهم و تباين نزعاتهم كسائر الناس، لا ينفكون عن تحيزات فيهم اعظم منها في غيرهم. و يندر ان يتجردوا من اهواء نفسية و اغراض

شخصية، تجعل كل فرد يشرئب الي هذا المنصب الرفيع ما هيئ له و وجد مجالا لارتقائه، و لو عن غير قصد، بل عن رغبة نفسية كامنة هي غريزيـة لا يفطن لها صاحبها او لا يعـدها باطلا و خروجا عن محجـة الصواب. بل حب النفس قـد يحمله علي الاعتقاد بأن زعامته اصـلح للأمة واجدي، فيوحي الهوي للنفس البرهان المقنع علي صحة رأيه.

و للمعتقـد ان يعتقـد ان الخليفـة ابا بكر تفطن الي سوء عواقب هـذا التشـريع، فأسـرع الي تعيين الخليفـة من بعـده، بالرغم علي جدة هذا التشريع الذي به كان خليفة، و علي تركزه في النفوس تتوقف صحة خلافته. كيف لا و قد شاهد هو الموقف في بيعته يوم السقيفة، و كان أدق من سم الخياط، مع غفلة الناس يومئذ عن الامر، و انشغالهم بفاجعة نبيهم.

و هكـذا حـذا حـذوه خليفته، فاخترع طريقـة الشوري من سـتة اشـخاص، و هي تبعـد كل البعد عن قاعدة الرجوع الي اختيار اهل الحل و العقد، علي ان وجدنا هؤلاء و هم سـتة لا غير لـم يتفقوا علي رأي واحد، فلعبت دورها التحيزات و العواطف، فصـغي رجل لضـغنه، و مال الاخر لصهره، علي حد تعبير الامام علي بن ابي طالب.

و لا شك لـم يخف علي الخليفة عمر اسـتحالة حتي اتفاق الجماعة الصـغيرة، فحكم فيها الأكثرية، و عند التساوي فالكفة الراجحة التي فيها عبد الرحمن بن عوف. و مع ذلك

حدد لهم الوقت بثلاثة ايام، و اعطي السلطة التنفيذية لغيرهم، ليقهرهم علي تنفيذ خطته.

لما ذا كل هـذه القيود التي وضـعها، مع تهديـدهم بالقتل إن تأخروا عن الموعـد و لـم يبرموا العهـد؟ لا شك انها كانت لقصد الابتعاد عن الخلاف و النزاع الطبيعي لمثل هذا الامر. اذا القي حبله علي غاربه.

و هنا وجـدنا كيف أحكم عمر بن الخطاب وضع هـذه الخطـة، اتقاء للخلاف و النزاع علي الامارة الـذي لا ينفك عادة عن اراقة الدماء، في وقت اراد ألا يتحمل تبعة تعيين شـخص الخليفة بعده، او انه في الأصح لـم يجد نفسه تميل كل الميل إلا لتعيين احد الثلاثة الذين قد ماتوا يومئذ، و هم ابو عبيدة بن الجراح، و سالم مولي ابي حذيفة، و معاذ بن جبل.

***

و لا اعجب ان يكون ابو بكر و عمر تفطنا الي ما في تشـريع إلقاء الامر علي عاتق اختيار الامة من فساد، و ما ينجم منه من جدال و جلاد. و لكن عجبي ممن يتسـرع فينسب ذلـك التشـريع الي النبي الحكيم الـذي لا ـ يفعـل إلا ـ عن وحي و لا يحكم الا بوحي. و مع ذلك يـدعي الاسلام و عرفان الرسول العظيم.

و لو كان للخليفة عثمان كلمة تسمع و رأي يطاع يوم

حوصـر و أيس من الحيـاة؛ لمـا تـأخر عن تعيين من يخلفه قطعـا. و لكن الموقف كـان ابعـد من ان يتحكم عليه بمثل ذلك، و هو محاط به ليخلع.

و مما يزيدنا اعتقادا بعقم هذا الحل لمشكلتنا الاجتماعية الخطيرة، انا لم نعرف خليفة تعين بهذه الطريقة إلا ابا بكر و علي بن ابي طالب، و ابو بكر كانت بيعته فتنـة او فلتـة وقي الله شـرها علي حـد تعبير عمر عنها و هو نفسه الذي شـيد اركانها، و مع ذلك قال عنها: (فمن دعا الي مثلها فهو الذي لا بيعة له و لا لمن بايعه)(1).

اما علي عليه السـلام، فبعـد تمام البيعـة له (الشـرعية بنظر اصـحاب هـذا الرأي) قـد وجـدنا كيف انتفض عليه نفس اهل الحل و العقد، و الإسـلام بعدُ لم يرث و العهد قريب، و هؤلاء المنتقضون هم جلة الصـحابة. فكانت حرب الجمل فحرب صـفين اللتان اريقت بهما آلاف الدماء المحرمة هدراً، و انتهكت فيهما حرمات الشريعة، و شلت بهما حركة الدين الاسلامي.

و لم نعرف بعد ذلك خليفة تعين إلا بتعيين من قبله أو بحد السيف، و لقد لعب السيف دورا قاسيا جعل العالم الاسلامي يمخر في بحر من الدماء. و لم يجرئ الطامعين بالخلافة علي

1- (1) كنز العمال ج 3 رقم 2326 و غيره.

خوض غمار الحروب إلا سن هذا القانون. قانون الاختيار، فمهد السبيل لطلحة الزبير ان يشعلا نار حرب الجمل، و مهد لمعاوية ما اجترم، و لابن الزبير تطاوله للخلافة و هو القصير، و للعباسيين ثورتهم علي الامويين و لغيرهم ما شئت ان تحدث و الحديث ذو شجون.

الي هنا اجد من نفسي القناعة و الاطمئنان الي القول بفساد تشريع تعيين الامام باختيار اهل الحل و العقد. و هيهات ان يكون من النبي الحكيم مثل هذا التشريع.

و كيف يخفي عليه ضرر هذا التشريع، و لا يخفي علي عائشة ام المؤمنين يوم تقول لعمر علي لسان ابنه عبد الله:

(لا تدع امة محمد بلا راع. استخلف عليهم و لا تدعهم بعدك هملا فاني اخشي عليهم الفتنة).

و ما ادري لما ذا لم يشر احد علي محمد عليه افضل التحيات ان يستخلف او يبين علي الاقل طريقة الاستخلاف حتي لا يفتتنوا، كما اشارت عائشة علي عمر؟ و لما ذا لم يسأله احد عن هذا الأمر، و هم يسألونه عن الكبيرة و الصغيرة لما ذا...؟

و المرجح انه سئل فأجاب، و لكن التأريخ هو المتهم في اهمال مثل هذه القضايا. علي ان تأريخ الشيعة لم يهمل مثل هذا السؤال و الجواب الصريح عليه.

4 لا نص في قاعدة الاختيار

لنتنـازل الآـن عن جميع مـا قلناه في البحث السابق من فساد تشـريع قاعـدة الاختيار، و لكن أ لا يجب علينا ان نسأل مـدعي صـدور هـذا التشريع من النبي عن الدليل عليه في كتاب أو سنة.

و بودي ان يـدلني احد علي قول الرسول في هذا الشأن، فما سـمعنا عنه انه قال يوما: ان الاختيار في تعيين الامام لأهل الحل و العقد، او انه امر الأمة باختيار الإمام بعده، لا تصـريحا و لا تلويحا. علي ان الدواعي جد متوفرة لنقل مثل هذا القول، و القوة و الحول في صدر الاسلام الي ما بعده في يد من يرتئي هذا الرأي و يدافع عنه، فليس لأحد ان يدعي ان هذا الاثر قد خفي علينا او امتنع الرواة عن نقله.

أجل! إلا ان الله تعالي قال في كتابه العزيز: (وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ يَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ).

ص:44

أجل! إلا ان الله تعالي قال في كتابه العزيز: (وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ يَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ).

إذن لم يثبت عن النبي قول و تصريح في هذا الأمر من الاتكال علي اختيار الأمة، بل قال تعالي: (ما كانَ لَهُمُ

اَلْخِيَرَةُ). فلنذهب الآن من طريق ثانية الي إثبات صحة هذا التشريع، فنقول:

(أ ليس النبي كان غير غافل عن امر الخلافة! و لكنه سكت عن الحل لمشكلتها بطريق النص علي احد من اصحابه، فلا بد انه أوكل ذلك الي اختيار أمته، فيكون سكوته إذن دليلا علي هذا الايكال).

و هذا يقرب من التفكير الصحيح لأول وهلة، اذا استطعنا التصديق بسكوته عن النص فلذلك لا يصح إلا اذا ثبت لنا ان لا نص هناك، فوجب ان ننظر فيما تقوله اهل السنة و الشيعة من النص علي ابي بكر او علي بن ابي طالب. و سيأتي في البحث (7) و (8).

و لكن لو فكرنا قليلا، فلا نرضي لمصلح عاقل فضلا عن النبي الكريم ان يرمز لهذا الأمر العظيم الذي وقع فيه اعظم خلاف في الامة بمثل هذا الرمز الخفي. و ما الذي يلجئه الي مثل هذا الدليل الصامت إن صح هذا التعبير مع علمه بما سيقع بعده من انشقاق و خلاف تتسع شقته هذا الاتساع، و تتخلله فتن و حروب أنهكت المسلمين و أفسدت روحية الاسلام ؟!.

أما كان الجدير اذا لم يكن قد نص علي احد ان يصرح لامته بايكال الأمر الي اختيارهم ؟ ثمّ يحدده باختيار اهل الحل و العقد منهم، او يحدده بخصوص اهل المدينة او

ص:

اهل عاصـمة الخلافة، ثمّ يكتفي باختيار الواحد و الاثنين منهم (علي ما يذهب اليه جماعة من علماء اهل السـنة)، ثمّ يذكر شـروط الامام حتي يعرفوا من يجب ان يختاروه!

أكل هذه الامور و القيود نسـتقيها من هذا الدليل الصامت و يكون هذا السـكوت حجة علي من يشكك في واحد من هذه الشئون فيستحق عقاب الخالق الجبار، ثمّ مع ذلك يخرج عن ربقة الاسلام و يدخل في زمرة الكافرين ؟!.

اللهم اشـهد علي اني لا أسـتطيع ان أؤمن بصـحة دليل صامت يدل هذه الدلالة الواسـعة علي اعظم الشئون العامة التي يعم بلاؤها جميع الخلق في كل زمان و مكان، في وقت الحاجة الي دليل ناطق و حجة واضحة.

اللهم اشهد اني لا استطيع ان أؤمن بذلك إلا اذا فقدت حرية التفكير و مسكة العقل.

5 اختلاف امتي رحمة

و أخشـي الآـن أن أكون قـد أخـذت بقلمي النعرة المذهبيـة في بحثي السـابق، فبالغت في تشويه تلك الـدعوي و خرجت عن خطتي التي رسمتها لنفسي.

و هل تراني اخفف وطأة من تلك السورة، فأطمئن الي

تعليل مقبول لـذلك الصـمت، بأن أقول: إن الرسول إنما ترك بيان هذا الأمر ليوقع الخلاف بين امته رحمة بهم لما روي عنه: (اختلاف أمتي رحمة)؟.

و لكن هيهات! إن لم تؤول الكلمة بما يتفق و مبادئ الاسـلام(1) فانها الكذب الصـراح علي داعية الوحدة و مقاتل نزعات الجاهلية الاولي بسيف من الاخوة الاسلامية انتشل العرب من هوة عميقة للتفرق و النزاع و النزال.

إن أكبر ظاهرة للاسـلام بل من أعظم أعماله، تلك الـدعوة الي الوحدة المطلقة بأوسع معانيها و تحطيم الفروق حتي بين الشـعوب و الامم المختلفة. ألا (إنما المؤمنون إخوة).

1- (1) هذه الكلمة مروية من طرق الطرفين. و الوارد في تفسيرها عن آل البيت غير ما يتخيل من ظاهرها ففي علل الشرائع: (انه قيل للامام جعفر بن محمـد الصـادق عليه السـلام: ان قومـا يروون أن رسول الله قال: (اختلاف امتي رحمـة)، فقال: صـدقوا، فقيل: اذا كان اختلافهم رحمة فاجتماعهم عذاب، قال ليس حيث تذهب و ذهبوا انما أراد قول الله عز و جل (فلولا نفر من كل فرقة طائفة..) و اختلاف أهل البلدان الي نبيهم ثمّ من عنده الي بلادهم رحمة...) الخبر. و مثله في معاني الأخبار للصدوق، و فيه: (انما أراد اختلافهم من البلدان لا اختلافا في دين الله، انما الدين واحد).

و ليس هناك شـيء في الاسـلام غني عن البرهان بل عن البيان مثل دعوته الي الوحـدة و العمل لها بكل الوسائل، ليكون المؤمنون كالبنيان المرصوص يشـد بعضه بعضا. و قـد تجلي ذلك ظاهرا في كثير من الأحكام العمليـة: في وجوب الحج و صـلاة الجمعة و الجماعة و حرمة الغيبـة و اللمز و الغمز و القـذف... و ما الي ذلك مما لا يحصـي، و بعد هذا أ يمكننا ان نجرؤ فندعي ان الرسول يدعو الي الخلاف! و أكثر من ذلك يسعي الي التفرقة، و أية تفرقة هي ؟ إن هذا لبهتان عظيم و زور مبين! اللهم اني استجير بك من شطحات القلم و التفكير.

6 الاجماع علي قاعدة الاختيار

و هنا لا بد أن ننصف في القول فلا نجري الكلام علي عواهنه، فأني لـم أعرف عن اخواننا أهل السـنة أنهم فسروا هذا الصمت المدعي بذلك التفسـير إلا من قل. و علي الاقل انهم لـم يجعلوه وحـده دليلا علي ايكال أمر الخلافـة لاختيار أهل الحل و العقـد، و إما يسـتدلون باجماع أهل الصدر الاول علي كفاية اختيار أهل الحل و العقد، بدليل بيعة أبي بكر يوم السـقيفة. و عندهم الاجماع حجة لما روي عنه عليه الصلاة و السلام، (لا تجتمع أمتي علي الخطأ) و (لا تجتمع أمتي علي ضلال).

ص:48

و لكن الشيعة لا- يعتبرون مثل هذا الاجماع. و إنما يعتبرون الاجماع اذا كشف عن رضي امام معصوم حيث يكون داخلا- في أحد المجمعين. و بيعة أبي بكر لم تقترن بموافقة الامام و هو علي بن أبي طالب فلم يتم عندهم الاجماع الذي يكون حجة.

و يذهبون الي أكثر من ذلك، فيقولون إن الاجماع بكل معانيه لم ينعقد علي صحة بيعة أبي بكر، لمخالفة علي الذي يدور معه الحق حيثما دار و مخالفة قومه بني هاشم و سعد بن عبادة و ابنه و جماعة من كبار الصحابة كسلمان و ابي ذر و المقداد و عمار و الزبير و خالد بن سعيد و حذيفة اليمان و بريدة و غيرهم. و لم يبايع من بايع منهم بعد ذلك إلا قهرا و اضطرارا حفظا لبيضة الاسلام و توحيدا لكلمة المسلمين. و لا- يصح بحال ان يدعي ان هؤلاء ليسوا من اهل الحل و العقد، و هم من تعرف. و يقول الشيعة ايضا: لم يتكرر بعد ذلك تعيين الامام باختيار أهل الحل و العقد، حتي نؤمن بحصول الاجماع علي صحة الاختيار في تعيينه، لان كل خليفة تعين إنما تعين بنص السابق عليه أو بحد السيف و القوة، ما عدا علي بن ابي طالب عليه السلام، و هو امام بالنص من النبي (صلي الله عليه و آله) و لا شأن لاختيار الامة في امامته.

***

هكذا اختلف الطرفان، و أجدني الآن حائرا إزاء أدلة

الطرفين. و اذا اردت ان اعالـج في بحثي حادث السـقيفة فانما اعالجه من عـدة نواح هذه أهمها، فهل اسـتطيع ان اسـتنتج الحكم الفاصـل لاحدي الطائفتين ؟ هذا ما قد يكشفه مستقبل البحث، و كل آت قريب. و لا أتنبأ بالنتيجة قبل وقتها.

و كنت راغبا في بحثي هنا أن احصل علي نتيجة حاسمة قبل الدخول في تفسير حوادث السقيفة، بل قبل الدخول في البحث عن النص علي الامام بعد النبي في هذا الفصل، و لكني هنا وجدت هذه المسائل متداخلة بعضها آخذ برقاب بعض.

و مع ذلـك أجـد بامكاني أن أضع تقريرا يقرب من التفكير الصـحيح مع الاعراض عما يقوله الطرفان في هـذا الشأن، مسـتعينا بما تقـدم في الابحاث السابقة، فهل تعيرني تفكيرك لحظة.

لاحـظ انك لا تشك و انا معك ان النبي ما فاه و لا ببنت شـفة عن قاعـدة انعقاد الامامـة باختيار أهل الحل و العقـد، مع ان الواجب يـدعو للبيان الصريح، كما قلنا آنفا، فلما ذا سكت عن ذلك ؟.

أ كـان إهمالا ـ و توريطا للمسـلمين في الخلاف و النزاع، او أنه لم يشـرع مثل هـذا التشـريع ؟ و الثاني هو الاقرب للصـحة. و عليه فما قيمة الاجماع إن تم مع علمنا بان هذا الامر ليس من الدين و لم يشرعه الله علي لسان نبيه، علي أنا وجدنا في

ابحاثنا السالفة ان البرهان الصحيح يقودنا الي الاعتراف بفساد هذا التشريع، فنعلم بنتيجة ان النبي لم يشرعه لأمته، فلا بد ان نتهم الاجماع المدعي باحدي التهم المتقدمة.

هذا من جهة. و من جهة اخري، انا لا أدري أن هؤلاء الذين اقدموا علي الاجتماع في السقيفة لعقد البيعة بدون مشورة من جميع الموجودين في المدينة و غيرهم علي أي سناد استندوا و بأية حجة اجتمعوا.

و المفروض ان لا حجة إلا الاجماع، و هو علي فرضه بعد لم ينعقد علي صحة عملهم ؟ فهذا العمل من أساسه كان بغير حجة قائمة و لا بينة واضحة، و لذا قال عمر لسعد بن عبادة: (اقتلوه قتله الله إنه صاحب فتنة).

فلأي شيء استحق القتل و لم يكن يدعو إلا الي نفسه كما دعا غيره ؟ و لما ذا كان صاحب فتنة ؟ ليس إلا لأن دعوته من غير حجة قائمة. و إذا كان قد ثبت من النبي صحة انعقاد الخلافة باختيار أهل الحل و العقد، و يكتفي بمثل القوم الذين اجتمعوا في السقيفة يومئذ فلم يكن قد دعا سعد إلا الي ما هو مشروع لا يستحق عليه قتلا و لا غضباً.

أما النص المروي: (الأئمة من قريش) فلم يكن معروفاً عند المهاجرين يومئذ او أنهم لم يريدوا ان يعرفوه، و لذا لم يستدلوا له ذلك اليوم، بناء علي ما هو الصحيح و إنما

استدل الخليفة أبو بكر بالقرابة من الرسول و ان العرب لا تعرف هذا الأمر إلا بهذا الحي من قريش.

7 النص علي أبي بكر

لم نتوقف فيما مضي للاعتقاد بأن الرسول صلي الله عليه و آله و سلم أو كل نصب الامام الي اختيار الامة، أو أهل الحل و العقد منهم خاصة... و هنا نبحث عما إذا كان قد عين شخص الامام بعده، فمن هو هذا الامام ؟

ا صحيح انه هو (أبو بكر)؟ يقطع الباحث ان الأحاديث المروية في النص عليه موضوعة إذا كان يفهم منها النص المدعي. و ليس أدل علي ذلك مما ثبت من تصريحاته نفسه، و لا سيما عند ما تمني قبيل موته ان يسأل عن أشياء ثلاثة ترك السؤال عنها، أحدها أمر الخلافة انه فيمن حتي لا ـ ننازع أهله. ثمّ من تصريحات خليفته عمر بن الخطاب لا ـ سيما عند ما دنت منه الوفاة فصرح ان النبي لم يستخلف. ثمّ من تصريحات عائشة (و هي المدافعة و المنفحة عن أبيها و قد قامت بقسط وافر من تأييده و تثبيت خلافته) فنفت الاستخلاف لما سئلت من كان رسول الله مستخلفاً لو استخلف.(1)

1- (1) و من الغريب اعتذار ابن حزم: (ان هذا الأثر خفي علي عمر كما خفي عليه كثير من أمر رسول الله (صلي الله عليه و آله) كالاستيذان و غيره، أو أنه أراد استخلافا بعهد مكتوب، و نحن نقر ان استخلافه لم يكن بعهد مكتوب. و أما الخبر في ذلك عن عائشة فكذلك ايضاً...). و لئن خفي هذا الأمر علي عمر و عائشة فعلي غيرهما اخفي و اخفي، علي ان جمله ارادتها للعهد المكتوب فابعد و ابعد.

و يكفينا لعدم الوثوق بهذا النص المدعي أن نطلع علي مجري حادث السقيفة، و نعرف استدلال من استدل علي صحة بيعته بالاجماع. أولا تراه نفسه يوم السـقيفة كيف قدم للبيعة عمر و أبا عبيدة، فقال: (قد رضـيت لكم أحد هذين الرجلين). أ تراه كان لا يعلم بالنص عليه، أو كان عالماً به و لكنه أعرض عنه ؟ لا شيء منهما يصح أن يقال.

و لا شيء أوضح من خطبته يومئذ إذ يقول فيها: (ان العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لقريش أوسط العرب داراً و نسباً).

بل لو كان نص عليه لما كانت العرب تعرف هذا الأمر إلا لشخصه بنص صاحب الرسالة. و ليس المقام مقام حياء من الدعوة الي نفسه.

و عندي لا شيء أوضح من وضع الأحاديث في النص

عليه. و أجد ان الذي ألجأ الي وضـعها ان من وضـعوها بعد ان ضاقوا ذرعاً بالاسـتدلال علي خلافته بالاجماع، مما وجدوه من مخالفة من خالف ممن لا يمكن اهمال شأنهم. و هـذا هو التعصب الذي يحمل صاحبه علي الكذب و الاختراع، فيقف حجر عثرة دون وصول طالب الحقيقة الي هدفه، و يجعل النفس لا تثق بكل ما يرويه هذا المتعصب فيما يخص معتقده، بل في كل شيء.

***

أما قضية تقديمه للصلاة فان صحت (و هي صحيحة بمعني انه صلي بالمسلمين)، فليس فيها اية اشارة الي تعيينه للخلافة، فضلا عن النص، لأن الامامـة في الصـلاة ليست بالأمر الخطير الشأن الـذي لا يكون إلا لمن له الامامـة، و لا سـيما علي مـذهب اهل السـنة، و كان ائتمام المسـلمين بعضـهم ببعض مما اعتادوا عليه، و شاع يومئذ بينهم بترغيب النبي فيه، فقد ورد(1) ان ابا بكر صـلي بالناس من دون إذن النبي (صلي الله عليه و آله) لما ذهب الي بني عمرو بن عوف ليصلح بينهم.

و لا اعتقد بصـحة ما يروي ان النبي هو الذي قدمه للصلاة و انه صلي أياما، لأن ابا بكر كان من جيش اسامة من غير شك و سيأتي و قد نهي النبي عن التخلف عنه،

1- (1) راجع صحيح البخاري 1:8.

و شدد في الاسراع بانفاذه، فكيف يجتمع هذا مع تقديم النبي له للصلاة مدة مرضه ؟

نعم الثابت انه صلي صلاة واحدة و هي صلاة الغدير يوم الاثنين يوم وفاة النبي (صلي الله عليه و آله)، و قبل ان يتمها خرج صاحب الرسالة يتهادي بين رجلين و رجلاه تخطان الأرض من الوجع فصلي بالناس صلاتهم و تأخر ابو بكر. فان عائشة هي التي روت امر النبي بتقديمه لا غيرها، و انها راجعته في ذلك حتي قال لها غاضبا: (انكن لأنتن صواحب يوسف) و هي نفسها تروي خروجه في نفس تلك الصلاة(1). و كان خروجه بهذه الحال الي الصلاة يوم وفاته و هو يوم الاثنين.

و لو ان النبي كان قدمه للصلاة اشارة الي خلافته، فلما ذا خرج بهذه الحال المؤلمة، و صلي بالناس صلاة المضطرين جالسا؟

و لا معني ما يقال: (انه صلي ابو بكر بصلاة النبي و صلي الناس بصلاة ابي بكر) فمن هو الامام اذن ؟ ان كان أبا بكر فلم يكن قد صلي بصلاة النبي، و ان كان النبي فلم تكن الناس قد صلت بصلاة أبي بكر، و تأويله ان صح ان النبي جالسا فلا يرون شخصه و كان مريضا فلا يسمعون

1- (1) صحيح البخاري (1:78 و 84 في حديثين). و صحيح مسلم في باب استخلاف الامام اذا عرض له من كتاب الصلاة.

صوته، فكانت الناس تعرف ركوعه و سجوده بصلاة أبي بكر الذي كان بازائه لما تأخر عن مقامه.

و الأحاديث مضطربة في هذا الباب، مع أن أكثرها عن عائشة ام المؤمنين و اختلافها الجوهري في ستة امور:

1 (في علاقة عمر بالصلاة) فيذكر بعضها ان النبي قال: (مروا عمر) بعد مراجعة عائشة عن أبيها فأبي عمر و تقدم أبو بكر و بعضها ذكر انه ابتداء أمر عمر، فقال عمر لبلال قل له ان أبا بكر علي الباب. و حينئذ أمر أبا بكر. و بعضهم ذكر انه اول من صلي عمر بغير اذن النبي فلما سمع صوته قال: (يأبي الله ذلك و المؤمنون) و في بعضها انه أمر أبا بكر ان يصلي نفس الصلاة التي صلاها عمر بالناس، و في بعضها صلي عمر و كان ابو بكر غائبا. و في بعضها ان النبي أمر أبا بكر و أبو بكر قال لعمر صل بالناس فامتنع.

2 (في من أمره النبي ليأمر ابا بكر)، فبعضها تذكر عائشة، و بعضها بلالا، و بعضها عبد الله بن زمعة.

3 (فيمن راجعه في أمر أبي بكر)، فبعضها تذكر عائشة وحدها راجعته ثلاث مرات أو أكثر، و بعضها تذكر عائشة راجعته ثمّ خالت لحفصة فراجعته مرة أو مرتين، فلما زجرها النبي قالت لعائشة: (ما كنت لأصيب منك خيراً).

4 (في الصلاة المأمور بها)، فبعضها يخصها بصلاة العصر و بعضها بصلاة العشاء، و الثالث بصلاة الصبح.

5 (في خروج النبي)، فبعضها تذكر انه خرج و صلي، و اخري تقول أخرج رأسه من الستار و الناس خلف ابي بكر ثمّ القي الستار و لم يصل معهم.

6 (و في كيفية صلاة النبي بعد الخروج)، فيذكر بعضها انه ائتم بأبي بكر بعد أن دفع في ظهره و منعه من التأخر.

و بعضها ان أبا بكر تأخر و ائتم بالنبي. و بعضها ان ابا بكر صلي بصلاة النبي و الناس بصلاة ابي بكر. و بعضها ان النبي ابتدأ بالقراءة من حيث انتهي ابو بكر.

7 (في جلوس النبي الي جنب ابي بكر) فبعضها تذكر جلوسه الي يساره، و بعضها الي يمينه.

8 (في مدة صلاة ابي بكر)، فبعضها تجعلها طيلة مرض النبي، و اخري تخصها بسبع عشر صلاة، و ثالثة بثلاثة أيام، و رابعة بستة، و يظهر من بعضها انه صلي صلاة واحدة.

9 (في وقت خروج النبي الي الصلاة)، فبعضها صريحة في انه خرج لنفس الصلاة التي امر بها ابا بكر، و بعضها صريحة في انه خرج لصلاة الظهر بعد صلاة ابي بكر اماما، و بعضها صريحة في خروجه لصلاة الصبح.

و هذه الاختلافات كما رأيت في جوهر الحادثة. و لم يظهر من الأخبار تعدد امر النبي له بالصلاة و لا تعدد خروجه.

و هذا كله يذهب بالاطمئنان بتصديقها في خصوصيات الحادثة لا سيما فيما يتعلق بأمر النبي له، نعم يعلم منها شيء واحد علي الاجمال هو صلاة ابي بكر بالناس قبل خروج النبي.

و لعل أبا بكر كان مخدوعا في تبليغه أمر النبي، كما جاء في الحديث ان عبد الله بن زمعة خدع عمر بن الخطاب فبلغه أمر النبي له بالصلاة.

و احسب ان اصل الواقعة ان النبي (صلي الله عليه و آله) أمر الناس بالصلاة لما تعذر عليه الخروج من دون ان يخص احداً بالتقديم، فتصرف متصرف، و تأول متأول. و لما بلغ ذلك اسماع النبي التجأ ان يخرج يتهادي بين رجلين و رجلاه تخطان الأرض من الوجع، فصلي بالناس جالسا صلاة المضطرين، ليكشف للناس هذا التصرف الذي استبد به عليه.

و استغرب توبيخه لعائشة لما راجعته عن أبيها إذ قال لها: (انكن لأنتن صواحب يوسف). لما ذا هذا التوبيخ القارص ؟ و أي شيء صنعته تستحق به هذا اللوم ؟ ألا أنها ضنت علي أبيها بهذه الكرامة، فلئن لم تستحق المدح فعلي الأقل لا تستحق مثل هذا التوبيخ.

و من هنا يتطرق الشك ايضا في صحة تقديم النبي لأبي

بكر، و يبـدو أنه كان من أمرها و تـدبيرها، فلذا وجهت اليها هذه الكلمة اللاذعة، لا لمراجعة هناك. و لا شك انها ترغب لأبيها كل فضـيلة و تلزه لزّاً. و لذا التجأت ان تعتذر عن مراجعتها المسـتغربة منها التي ادعتها بانها انما كانت تحب ان يصـرف عن أبيها لأنها رأت ان الناس لا يحبون رجلا قام مقام النبي ابداً و انهم سيتشأمون به في كل حدث كان.

أ لاـ تراها كيف بعثت الي ابيها تـدعوه لما بعث النبي الي علي يـدعوه ليوصـيه، و كـذلك صـنعت حفصـة لأبيها، و لكن النبي لما رآهم قد اجتمعوا أمرهم بالانصراف و قال: (فإن تك لي حاجة ابعث اليكم)(1) و هذا قول من عنده ضجر و غضب باطن.

و النتيجة: انه ليس هناك ما يستحق ان يسمي نصا، و لا اشارة الي خلافة ابي بكر.

---

8 النص علي علي بن أبي طالب

اذن، أ فصـحيح ما تقوله الشيعة من النص علي علي عليه السلام ؟ ايها القارئ! بودي ان يكون حياديا، فلا تنظر الي ما تقوله الشيعة عن هذا الرجل إلا بتقزز، حتي لا اكلفك

1- (1) الطبري (3:195).

بـالرجوع الي كتبهم و اخبارهم. و انا معك الآن سأطرحها جانبا. و ما يـدرينا لعل حبهم و تعصـبهم لصاحبهم يسوقانهم الي القول عنه بما لم يكن، كما ساق أهل السنة الي رواية النص علي أبي بكر. فلنأخذ حذرنا من الآن.

و بعـد هـذا أ ترانا نحـذر من مؤلفات اهل السـنة و صـحاحهم في حق علي، و هم ان تعصـبوا فعليه، لا له ؟ كلا؟ فان الكثير من محدثيهم يحـذرون كـل الحـذر من رواة مـدحه و فضـائله، فيقـدح المؤلف منهم في الراوي الـذي تشم منه رائحـة الميل اليه، و يرسـلون الطعن في الحـديث ارسالا فيقولون: (و في متنه غرابـة شديـدة)، و ليس إلا لأنه لا يتفق و عقيـدته و يكفي في الثقة بالمحدث ان يكون ممن يميل عنه كأبي هريرة و المغيرة بن شعبة و عمران بن حطان و امثالهم.

و قبل ذلك نجد سـيوف بني أمية مسـلولة علي رءوس الرواة لئلا ينسـبوا فضيلة لهذا الذي ناصبوه العداء و سنّوا سبّه علي المنابر و المعابر. و نجدهم كيف كانوا يغدقون بالاعطيات علي الطاعنين فيه و المنحرفين عنه.

و لـذا تراني اطمئن كل الاطمئنان و انت معي لا شك الي كل حديث خلص من هذه العقبات، و اسـتطاع ان يطلع رأسه من بين الأحاديث ظافرا بالصـحة و التأييد، فسـجلته كتب اهل السـنة و صـحاحهم في فضل علي و النص علي خلافته، و مع هذا فستجدني لا اعتمد إلا علي بعض

الصحيح الثابت عند اهل الحديث منهم الذي بلغ حد التواتر أو كالمتواتر.

و الحق ان لعلي منزلـة كبري عنـد اخيه و ابن عمه، يغبطه عليهما كل مسـلم بل حسدوه عليها، و لا ينكرها إلا مكابر، حتي ان ام المؤمنين عائشـة (علي مـا بينهـا و بين علي مـا هو معروف) قـالت فيه: (مـا رأيت رجلا احب الي رسول الله منه و لا رأيت امرأة كانت احب اليه من امرأته).

و قد كان صـلي الله عليه و آله و سـلم يمجد و يرحب بصـهره عند كل مناسبة من يوم ولد صهره قبل البعثة بعشر سنين الي يوم فاضت نفسه الزكية في حجره. و هذا مما لا يشك فيه مسلم، و إنما الشأن فيما يدل علي العهد اليه بالخلافة فلنقرأ بعض الأحاديث الصحيحة المتواترة او المشهورة، و لننظر ما ذا سنفهم منها:

1 لما نزلت الآيـة الكريمة (وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) جمع النبي (صـلي الله عليه و آله) من اهل بيته اربعين رجلا في قصة معروفة و كان ذلك في مبـدأ البعثـة فعرض عليهم الاسـلام و ضـمن لمن يؤازره و ينصـره منهم الاخوة له و الوراثة و الوزارة و الوصاية و الخلافة من بعده فأمسكوا كلهم الا عليا، فقد اجابه وحده، فأخذ برقبته، و قال:

(ان هـذا اخي و وصـيي و خليفتي فيكم او من بعدي علي اختلاف الروايات فاسـمعوا له و اطيعوا). فقام القوم يضـحك بعضـهم الي بعض استهزاء)،

و يقولون لأبي طالب قد امرك ان تسمع و تطيع لهذا الغلام. يعنون ابنه(1).

2 و في غزوة الخندق لما برز علي الي عمرو بن عبد ود قال (صلي الله عليه و آله) فيه: برز الايمان كله الي الشرك كله). و ذلك سنة 5 ه.

3 و في غزوة خيبر باهي به الـذين تراجعوا بالرايـة فقال: (أني دافع الرايـة غدا الي رجل يحب الله و رسوله و يحبه الله و رسوله كرار غير فرار) فتطاولوا لها، و لكنه دفعها الي علي، و ذلك سنة 7 ه.

4 و لما آخي بين المهاجرين قبل الهجرة و بين المهاجرين و الأنصار بعـدها بخمسة اشـهر، اصـطفي عليا لنفسه فآخاه، و قال له: (انت مني بمنزلة هارون من موسـي غير انه لا نبي بعدي). ثمّ لم يزل يكرر هذه الكلمة في مناسبات كثيرة، منها لما سد الابواب الشارعة الي المسجد إلا باب علي، و منها غزوة تبوك لما خلفه علي المدينة سنة 9 ه. و في رواية ابن عباس زيادة (انه لا ينبغي ان اذهب إلا و انت خليفتي)(2).

1- (1) من الغريب ما صـنعه الاسـتاذ محمـد حسـين هيكل. اذ يذكر هذه الحادثة في كتابه (حياة محمد) في الطبعة الاولي و يهملها في الطبعات الاخري من غير تنبيه.

2- (2) و صححها الحاكم في المستدرك و الذهبي في تلخيصه.

5 و قال له: (لا يحبك إلا مؤمن و لا يبغضك إلا منافق). و بعد ذلك كان يعرف المنافق ببغضه لعلي.

6 و قال: (ان منكم من يقاتل علي تأويل القرآن كما قاتلت علي تنزيله). و بعد ان نفي ذلك عن ابي بكر و عمر قال: (و لكنه خاصف النعل) و كان علي يخصف نعل رسول الله ساعتئذ في الحجرة عند فاطمة.

7 و كان عند النبي طاير طبخ له، فقال: (اللهم آتني بأحب الناس اليك يأكل معي) فجاء علي فأكل معه.

8 و قال: (أنا مدينة العلم و علي بابها).

9 و قال: (أقضاكم علي).

10 و قال: (علي مع الحق و الحق مع علي، لن يفترقا حتي يردا علي الحوض).

11 و أثبت له غير مرة الوراثة و الوصاية، و أوضح انهما وراثة و وصاية نبوة، فقال مرة: (لكل نبي وصي و وارث و إن وصيي و وارثي علي بن ابي طالب)(1). و قال له علي مرة:

1- (1) راجع ميزان الاعتدال في ترجمة شريك. و قال عن راوية محمد بن حميد الرازي ليس بثقة مع أنه قد وثقه احمد بن حنبل و ابو القاسم البغوي و الطبري و ابن معين و غيرهم. و نقل هذا الحديث عن السيوطي في اللآلئ و عن الحاكم.

(ما أرث منك). قال صلي الله عليه و آله و سلم: (ما ورث الأنبياء من قبل كتاب ربهم و سنة نبيهم)(1).

12 و قال سنة 8 ه: (إن عليا مني و أنا من علي لا يؤدي عني إلا أنا و علي).

13 و قال: (إن عليا مني و أنا من علي، و هو ولي كل مؤمن بعدي).

14 و قال: (انت ولي كل مؤمن بعدي).

15 وسد ابواب المسجد غير باب علي، فكان يدخل المسجد جنبا، و هو طريقه ليس طريق غيره. قال عمر بن الخطاب: (لقد اعطي علي بن ابي طالب ثلاثا لئن تكن لي واحدة منها أحب الي من حمر النعم: زوجته فاطمة بنت رسول الله، و سكناه المسجد مع رسول الله يحل له ما يحل فيه، و الراية يوم خيبر). و كذلك روي عن ابن عمر. و لما روجع النبي في فتح باب علي قال: (إنما أنا عبد مأمور ما امرت به فعلت إن اتبع إلا ما يوحي إلي).

16 و لما آخي النبي بين كل اثنين من المهاجرين، و ذلك قبل الهجرة اصطفاه لنفسه فآخاه و قال له فيما قال: (أنت أخي و وارثي. أنت مني بمنزلة هارون من موسي إلا انه لا نبي بعدي). و كذلك صنع و قال لما آخي بين المهاجرين و الانصار،

1- (1) راجع كنز العمال (41:5).

فاصطفاه لنفسه مع ان كلا منهما من المهاجرين و ذلك بعد الهجرة بخمسة اشهر. و لا يزال يدعوه أخي في مناسبات لا تحصي.

17 و يوم الغدير، بعد الرجوع من حجة الوداع سنة 10 ه أمر بالصلاة، فصلاها بهجير، و قام خطيبا علي مائة الف أو يزيدون، حيث تفترق قبائل العرب. و بعد أن نعي نفسه اليهم ذكر الثقلين كتاب الله و عترته و انهما لن يفترقا و لن يضلوا بالتمسك بهما أبدا، أخذ بيد علي و قال:

أيها الناس أ لست أولي منكم بأنفسكم ؟

قالوا: بلي يا رسول الله! و كرر السؤال عليهم و اجابوا.

ثمّ قال: فمن كنت مولاه فعلي مولاه (و في أحاديث كثيرة: من كنت مولاه فعلي وليه). اللهم وال من والاه و عاد من عاداه، و انصر من نصره و اخذل من خذله، و أدر الحق معه حيثما دار (فلقيه عمر بن الخطاب فقال له: هنيئا يا بن أبي طالب أصبحت و أمسيت مولي كل مؤمن و مؤمنة)(1) أو (أصبحت مولاي و مولي كل مؤمن و مؤمنة)(2).

1- (1) مسند أحمد (4:281) و عن تفسير الثعلبي. و في الصواعق المحرقة في الشبهة 11 عن ابي بكر و عمر معا.
2- (2) تفسير الرازي في قوله تعالي: (يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك.)

هذه هي الاحاديث التي أخذناها من الصحيحة، اكتفاء بهذا القليل عن كثير لا تسعه هذه الرسالة. أما الآيات فقد قال ابن عباس: (نزلت في علي ثلاثمائة آية من كتاب الله تعالي). و لم يعرف من طريق اهل السنة إلا مائة، و نختار منها ثلاث آيات:

1 آية (إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ). و قد نزلت فيه إذ تصدق بخاتمه و هو راكع في الصلاة، فاثبت الولاية له كولاية الله و رسوله علي الناس. و هي مثل الأحاديث التي جعلت له تلك الولاية الالهية.

2 آية التطهير، إذ جمع النبي (صلي الله عليه و آله) عليا و زوجه و ابنيهما معه في كساء واحد، فنزلت الآية باذهاب الرجس عنهم و تطهيرهم، و هذه العصمة التي تشترط في الامامة.

3 آية المباهلة، إذ باهل بأهل بيته اولئكم، نصاري نجران في قصة مشهورة، و جعل علي بنص الآية نفسه.

و نحن لما اعتقدنا ان طريقة الاختيار لا يصح ان يقال ان النبي عول عليها في تعيين الخليفة من بعده، فمن الضروري ان ينص علي واحد من اصحابه، و لكن لم يكن أبا بكر فمن هو إذن ؟

ليس هناك شخص ورد فيه ما ورد في علي يصح ان

يكون نصا كهذه الأحاديث مع الآيات التي يؤيد بعضـها بعضا و يفسـر بعضها بعضا: فقد نصت علي انه وارث النبي وراثة نبوة، و وصيه، و أخوه، و نفسه، و ولي المؤمنين بعـده، و اولي بهم من انفسـهم، و منزلته منه منزلـة هارون من موسـي عـدا منزلة النبوة، و خليفته من بعده، و يدور معه الحق كيفما دار لن يفترقا، و هو أقصي الأمة، و باب مدينة علمه، المطهر من الرجس.

و هـذه صـفات لاـ تكون إلاـ لامـام معصوم و خليفـة للنبي يختاره الله و رسوله للأمـة. و هل يمكن أن يكون شـخص أولي بالمؤمنين من أنفسهم و وليهم بعد النبي و هو سوقة كسائر الناس تجب عليه طاعة غيره و السمع له ؟ هيهات!

و لكن كل واحـدة من هـذه الكلمات التمس لها بعض الباحثين في الامامـة تأويلا، احتفاظا بكرامة الصـحابة و اتقاء من نسـبة مخالفة نص النبي اليهم. و نحن نقول لهؤلاـء المؤولين إذا كنتم قـد عرفتم حسن نوايـا هؤلاء الصـحابة، و هم في الوقت نفسه مجتهـدون علي رايكم فلا اسـتغراب في مخالفـة الصـريح من كلام النبي (صـلي الله عليه و آله) و ليس الخطا علي المجتهدين بعزيز. ثمّ انا عرفنا عنهم عدم تعبدهم بالنصوص في كثير من الامور التي تفوت الحصـر، كتوقفهم في بعث جيش اسامة و تأميره حتي أغضـبوا النبي فقال ما قال و بالأخير امتنعوا عن الخروج حتي قبض، و كاعتراض عمر علي صلح

الحديبية، و كمنعه من املاء الكتاب الذي قال عنه النبي لن تضلوا بعده ابدا. و ما الي ذلك.

فنحن الآن بين أمرين إما أن نؤول هـذه الأحاديث بما يصـح و بما لا يصح و أما ان نقول إن اولئك الصـحابة قد تأولها لأمر ما. و لا شك ان الثاني أقرب الي البحث العلمي و التفكير الحر المسـتقيم، لأنا وجـدناهم قد تأولوا في حياة النبي النصوص الصـريحة التي لا تقبل التأويل كما سـمعت بعضـها. و هل لمن يحسن الظن بهم إلا ان يعتقـد انهم لم يقصدوا مخالفة النبي عصـيانا، و انما كانوا يظنون المصـلحة فيما ينقدح لهم من رأي، و قد اعتادوا أن يشاورهم في الامور اتباعا لأمر الله تعالي (وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) فانسوا التدخل حتي في الشـئون العامة التي يأمر بها النبي و يعقدها.

و من جهـة ثانيـة نري امتنـاع دخول التأويلاـت التي تسـمعها من البـاحثين علي بعض هـذه الأحاديث، منها (حـديث الغـدير) و هو آخر النصوص و آية (إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ ...) و حديث (ولي كل مؤمن بعدي). فقد اولوا المولي و الولي في كل ذلك بالناصر أو المحب.

و هـذا بعيد كل البعد في حديث الغدير، لأن أهل اللغة ان فسـرت المولي و الولي بالناصـر و المحب فقد فسـروها بمالك التصـرف. و هل تفهم معاني الألفاظ المشتركة إلا بقرائنها؟ و القرينة الحالية و اللفظية صريحة في هذا المعني الأخير:

فان النبي قام خطيبا علي مائة الف او يزيدون بحرّ الهجير، و هل يصح عند العقل ان يقف هذا الموقف الخطير و هو يريد أن يفهم الناس أن عليا ناصر للمؤمنين أو محب لهم ؟ و أية حكمه في بيان هذا الامر الواضح فتسترعي هذا الاهتمام من النبي الحكيم.

و ايضا و بعد ان ينعي نفسه و يذكر الثقلين يأخذ بيد علي و يرفعه اليه حتي يبين بياض ابطيهما. و يستنشدهم: (أ لست اولي منكم بأنفسكم). فما هذه التوطئة ؟ أ كانت كلاما مطروحا لا فائدة فيه ام انها لتوضيح ما سيفرغ عليها فقال:

(فمن كنت مولاه فعلي مولاه)؟

لا شك انها قرينة لفظية صريحة في بيان ان عليا مثله اولي من المؤمنين بأنفسهم. و المولي كما قلنا هو (مالك التصرف) أو (الاولي بالشيء منه)، كما تقول: السيد مولي العبد، أي مالك لتصرفه، او انه اولي بالتصرف في شئونه منه.

و لا حاجة الي دعوي ان المولي بمعني كلمة (الأولي) فقط، حتي يعترض عليها المعترض فيقول: لا يصح أن يقال (مولي منه) كما تقول (اولي منه). بل ان معني كلمة (المولي) معني مجموع هذه العبارة (الاولي بالشيء منه) الذي يساوق معني مالك التصرف.

و منها و هو اول النصوص الحديث: (ان هذا أخي

و وصي و خليفتي فيكم أو من بعدي فاسمعوا له و اطيعوا). و هو حديث ثابت لا شك فيه، فهل تجد عبارة هي أصرح من هذه العبارة للنص علي الخليفة و الامام ؟

و لو قرأنا نص ابي بكر علي خليفته لم نر إلا عبارة (إني أمرت عليكم عمر بن الخطاب). و هذه لا تشبه تلك في صراحتها و لا تقاس عليها في قياس، فأين صراحة الامارة من صراحة الخلافة ؟ و الامارة تكون في الجيش و تكون في كل شيء، و الخلافة لفظ كان يجري علي لسان النبي و المسلمين و لا يراد منه إلا هذا المعني فعند ما تسمع قوله صلي الله عليه و آله و سلم: (هذا الأمر لا ينقضي حتي يمضي فيهم اثني عشر خليفة كلهم من قريش) لا نشك في المراد بكلمة (خليفة) كما لا نشك في كلمة قريش. فلما ذا لا نفهم من كلمة (خليفتي) هذا المعني ؟ و هل استعملها في يوم من الايام في معني آخر؟

و الفرق بين نص النبي و نص ابي بكر ان ابا بكر لم يحدث بعده ما يأخذ بالاعناق الي التأويل و التشكيك، لأنه قد عمل به و انتهي كل شيء. اما نص النبي فقد بقي قولا في صدور الرجال و صحائف الكتب و لم يعمل به، فسلبت صراحته و أدخل عليه التأويل احتياطا في حمل الصحابة علي أحسن الأعمال. و لئن درئ الطعن عنهم فلا يجلون عن الخطأ، و ما هو بعزيز علي مثلهم.

علي انا لا نريـد ان نـدخل في البحث عما يجب أن يقال في عـذر الأصـحاب، و انما الغرض أن نفهم مـدي دلالـة هذا الحديث في نفسـه قاطعين النظر عن كل ما صدر عن الاصـحاب، فلا نجد كلمة هي أوضح و أصـرح من كلمة (وصيي) و كلمة (خليفتي)، ثمّ تعقيبهما بالأمر بالسمع و الطاعة.

و ينسق عليه حديث رقم (11): (لكل نبي وصـي و وارث و ان وصـيي و وارثي علي بن أبي طالب). و يعلم من هذا بصراحة انها وصاية نبوة لا وصايـة اعتياديـة، و وراثـة نبوة علي نسق الوصايـة لا وراثـة مال أو عقار، فان عليا ابن عمه و ابن العم لا يرث مع البنت، و لا معني لوراثة النبي لأنه نبي غير ان يكون بمنزلته في الولاية العامة و وجوب السـمع و الطاعة، أما العلم فكل المسلمين ورثوه منه فلا اختصاص لعلي إلا أن يراد من العلم معني آخر لا يشترك فيه الناس، و هو الذي يكون من مختصات النبوة، فيكون علي المقصود أدل و أدل.

أما باقي الأحاديث فلو لم يكن كل واحد منها نصا علي امامته، فعلي الاقل انها بمجموعها مع ما تقدم من النصوص تكون نصا علي امامته، فعلي الأقل انها بمجموعها مع ما تقدم من النصوص تكون نصا لا يقبل الاحتمال و التأويل، لا سـيما بعد أن بينا فساد القول بتشـريع ايكال الأمر الي اختيار الأمة

و قلنا انه لا بد ان يكون واحد من الأصحاب قد نص علي خلافته النبي (صلي الله عليه و آله).

لا- تزال هناك شبهة مستعصية علي الباحثين، و لا يزال يكررها الكتاب حتي يومنا هذا. و هي: ان هذه الأحاديث لو كانت للنص علي خلافته، كما تقوله الشيعة، فلما ذا لم يتمسك بها هو، و يحتج بها علي القوم لو كانوا قد اخذوا حقه ؟ و لما ذا لم يحتج بها اصحابه أو باقي المسلمين في اجتماع السقيفة ؟

و الحق انها شبهة قوية هي أقوي متمسك لإنكار النص، بل ليس شيء غيرها يستحق ان يذكر في معارضة تلك النصوص، فيلجئ الي تأويلها و تفسيرها علي غير وجهها. و الباحثون اجابوا عنها بعدة امور يطول علينا استقصاؤها، و لكن الذي يرضي نفسي و ادين به ربي ان اقرر ما يلي:

ان مولانا امير المؤمنين لما انتهي الأمر بالناس الي مبايعة ابي بكر خليفة، فهو قد أمسي بين أمرين لا ثالث لهما: اما ان يستسلم للأمر الواقع، فيترك كل مطالبة علنية صريحة ابقاء لكلمة الاسلام. و أما ان يجاهد حتي يثبت حقه، و هو نفسه قال: (و طفقت ارتئي بين ان اصول بيد جذاء أو أصبر علي طخية عمياء). و لما اختار الأمر الاول و هو أعرف بما اختار إذ يقول: (فرأيت ان الصبر علي هاتا احجي) فلم يبق وجه لمطلبته العلنية بالخلافة، و قد طوي عنها كشحا

و أسـدل دونها ثوبا. و لو انه كان يعلن بالمطلبـة فلا بـد ان يتبعها بالسـعي الي تنفيـذها مهما أوتي من حول و قوة، و في ذلك تطويح بكلمة الاسلام و بنائه السامق و سيأتي تمام البحث في الفصل الرابع. اما اصحابه فله تبع، و في السقيفة قال الانصار كلهم أو بعضهم: (لا نبايع إلا عليا) و لكنها كلمة ذهبت في فضاء التأريخ منسية و قد عالجناها في غير موضع من هذا الكتاب كما يأتي.

ص:73

الفصل الثاني: تدبير النبي لمَنع الخِلاَف..

اشارة

ص:75

(أ بعث اسامة)

1

مرض النبي صـلي الله عليه و آله و سلم مرضه الذي انتقل به الي الرفيق الأعلي، فوجس منه خيفة الفراق، و هو يعلم ان امته علي شفا جرف هار من بحر للفتن متلاطم، و العرب مغلوبـة علي أمرها تحرق الارم عليه و علي قومه و اهل بيته، و تنتهز الفرصـة للوثوب لأخذ ثأرها و هو علي حـذر منهم، و المنـافقون بالمرصـاد بين ظهراني المسـلمين يقولـون بألسـنتهم مـا ليس في قلـوبهم و يعـدون من اصـحابه و هو علي المسـلمين منهم احـذر، و ليس عهـد دحرجة الدباب في العقبة ببعيد. و اكثر من ذلك هذه الأخبار ترد بخروج الأسود العنسـي و مسـيلمة يدعيان النبوة فتتكاثر أتباعهما.

ما أشـد حال النبي و حزنه، و هو يسـتدبر امـة هذه حالها و هي تسـتقبل الفتن كقطيع الليل المظلم كما في الحديث. و قد رأي مواقع الفتن خلال بيوت المدينة كمواقع القطر في حديث آخر(1).

و لكنه في هذا الموقف الدقيق مع ذلك يرمي بجيشه

1- (1) صحيح مسلم 168:8 باب نزول الفتن.

اللجب الي مكان سحيق، إذ يعقد اللواء بيده للشاب اسامة بن زيد أميرا علي الجيش بعد يوم واحد من ابتداء شكاته، بعد ان كان امرهم بالبعث قبل ابتداء مرضه. ثمّ يضم تحت لوائه شيوخ المهاجرين و الانصار و جلتهم و وجوههم منهم ابو بكر(1) و عمر بن الخطاب و عبد الرحمن بن عوف و ابو عبيدة و سعد بن ابي وقاص و اسيد بن حضير و بشر بن سعد و غيرهم، ليحارب بهم اهل أبي بناحية البلقاء من ارض الشام اولئك قتلة ابي اسامة زيد من الروم.

ثمّ يشدد في الخروج و يلعن المتخلف منهم و يغضب ذلك الغضب لتباطؤ القوم و لغطهم حول تأمير فتي يافع علي

1- (1) صرح بدخول ابي بكر في البعث اكثر المؤرخين، منهم ابن سعد في طبقاته (46:4) و (136:4) و ابن عساكر في التهذيب (391:2) و (215:3) و صاحب كنز العمال (312:5). و صاحب تاريخ الخميس (172:2) و اليعقوبي في تاريخه (93:2) و ابن ابي الحديد (21:2) و محمد حسين هيكل من المتأخرين في حياة محمد (467) و غيرهم مما لا يحصي. و لم نجد تصريحا و لا تلويحا لأحد من المؤرخين بخروجه من جيش اسامة. و انما يكتفي بعضهم بقول (وجوه المهاجرين) و ما يؤذي هذا المعني بدون تصريح باسم أحد، و لكن بعض المؤلفين الجدليين حاول انكار دخوله من غير حجة ظاهرة.

شيوخ المسـلمين، فيقول: (ان تطعنوا في إمـارته فقـد كنتم تطعنون في إمارة ابيه من قبل و ايم الله ان كان لخليقاً للامارة و ان ابنه من بعـده لخليق للامارة).

2

لشد ما يعتلج العجب في نفوس المتفكرين من هذا الحادث، فيعجب الانسان.

(اولا) ان تسند قيادة اعظم جيش اسلامي يومئذ، في ذلك الظرف الدقيق الذي وصفناه، في مرض النبي، الي شاب يافع لم يتجاوز العشرين من سـنيه (علي جميع التقادير)، و هو لم يجرب الحروب بعـد و بالأصح لم تسـند اليه قيادة من هذا النوع و لا من نوع آخر. و الجيش معبإ لجهاد اقوي اعداء الاسلام في ذلك الموقع البعيد عن العاصمة الاسلامية.

(ثانيا) أن يؤمر هذا الفتي، مع ذلك، علي شـيوخ المسلمين الذين فيهم قواد الحروب و رؤساء القبائل و اصحاب النبي الذين يرون لأنفسهم مقاما اسمي و منزلة رفيعة. و يرشحون انفسهم لمنصب هو أعظم كثيرا من منصب قائدهم الصغير هذا.

(ثالثا) ان يتباطأ المسلمون عن الالتحاق بهذا البعث بالرغم علي اصرار النبي و تشديده النكير علي المتخلفين و لعنه

اياهم. و يكفي ان نعرف ان البعث وقع قبيل شكاته أو في أولها و قد استدامت علته اربعة عشر يوما (علي اوسط التقادير). و في كل هذه المدة الطويلة يثاقل القوم عن الخروج. و قد عسكر قائدهم الفتي بالجرف، و هو عن المدينة بفرسخ واحد (بعد ان عقد النبي له الراية بيده الشريفة) ينتظر جيشه المتمرد ان يجتمع اليه، فتخلق الاشاعات عن حال النبي فيرجع اسامة الي المدينة برايته فيركزها علي باب النبي، و لكن الرسول في كل مرة يأمره بالعودة و يحث القوم علي الالتحاق به. و لكنه في اليوم الاخير يرجع مرتين في المرة الاولي يأمره النبي بالسير قائلا: (اغد علي بركة الله تعالي) فيودعه و يخرج، و في المرة الثانية يرجع و معه عمر و أبو عبيدة فيجد النبي يجود بنفسه، ثمّ يلتحق بالرفيق الاعلي.

فما ذا دهي المسلمين حتي خالفوا الصريح من أمر النبي هذه المدة الطويلة من غير حياء منه و لا خجل و لا خوف من الله و رسوله و توطنوا علي غضبه و لعنهم جهارا، أ تراهم استضعفوا النبي و هو مريض شاك فتمردوا عليه، أم ما ذا؟

(رابعا) ان ينكر هؤلاء المسلمون علي نبيهم تأميره لهذا الفتي، ثمّ لا يرتدعون ان نهاهم عن ذلك. و ليس لهم علي كل حال حق هذا الانكار اذا كانوا حقا قد تغذوا بتعاليم

الإسلام و عرفوا ان النبي لا ينطق عن الهوي و ما كان لهم الخيرة.

(خامسا) ان النبي قد علم بقرب أجله و يعلم ان الفتن قد أقبلت كقطع الليل المظلم، فكيف يبعد جيشه و قوته عن العاصمة و مركز الدعوة، بل كيف يخلي المدينة من شيوخ المهاجرين و الانصار و زعمائهم و اهل الحل و العقد منهم.

فلا بد أن يكون كل ذلك لأمر ما عظيم، اكثر من هذه الظواهر التي يتصورها الناس.

3

فهل نجد حلا لهذه المشاكل تطمئن اليه النفس الحرة، بعد عرفاننا للنبي و عظمته و انه لا يفعل و لا يقول إلا عن وحي و سر إلهي.

لم يصح عندنا تفسير لمشاكل هذا الحادث إلا بأن نقول انه (صلي الله عليه و آله) اراد:

(اولا) ان يهيئ المسلمين لقبول (قاعدة الكفاية) في ولاية امورهم، من ناحية، عملية، فليست الشهرة و لا تقدم العمر هما الأساس لاستحقاق الامارة و الولاية، فاذا قال عن اسامة مؤكدا جدارته بالقسم و لام التأكيد: (و ايم الله ان كان لخليقا للامارة يعني زيدا و ان ابنه لخليق للامارة).

ص:80

و إذا علمنا ان علي بن ابي طالب هو المهيأ لولاية امور المسلمين بعد النبي علي الأقل ان فرض انه لم يكن هو المنصوص عليه، أ فلا يثبت لنا ان قضية اسامة كانت لقبول الناس امارة علي علي صغر سنه يومئذ بالقياس الي وجوه المسلمين و كان إذ ذاك لا يتجاوز الثلاثين ؟ و هذا ما يفسر به المشكل الأول و الثاني في هذا البعث.

و (ثانيا) ان يبعد عن المدينة ساعة وفاته من يطمع في الخلافة خشية ان يزيحوها عن صاحبها الذي نصبه لها في الخلافة. و قد ثبت عنه انه كان يتوجس خيفة علي اهل بيته و لا سيما علي علي، فوصفهم بأنهم المظلومون من بعده. و لذا نراه اوعب في هذا الجيش كل شخصية معروفة تتطاول الي الرئاسة، و لم يدخل فيه عليا و لا احدا ممن يميل اليه الذين كانوا له بعد ذلك شيعة و وافقوه علي ترك البيعة لأبي بكر، فلم يذكر واحد منهم في البعث، و هم ليسوا اولئك النكرات الذين لا يذكرون.

و هذا ما يفسر تباطؤ القوم عن البعث و عرقلتهم له بخلق الاشاعات في المعسكر عن وفاة الرسول، مع اصراره (صلي الله عليه و آله) ذلك الاصرار العظيم. و لم يمكنهم ان يصرحوا بما في نفوسهم، فاعتذروا بصغر قائدهم، و في هذا كل معني التهجين لرأي النبي و عصيان أمره الصريح.

فكان الغرض اخلاء المدينة من المزاحمين لعلي ليتم الأمر

له، بعد ان اتضح للنبي ان التصريحات بخلافته لا تكفي وحدها للعمل بها عندهم، كما امتنعوا عن السير تحت لواء اسامة و هو لا يزال في قيد الحياة، فقدر أن القوم إذا ذهبوا في بعثهم هذا يرجعون و قد تم كل شيء لخليفته المنصوب من قبله، فليس يسعهم إلا ان ينضووا حينئذ تحت جماعة المسلمين و رايتهم.

و (ثالثا) ان يقلل من نزوع المتوثبين للخلافة، ليقيم الحجة لهم و للناس بأن من يكون مامورا طائعا لشاب يافع و لا يصلح لإمارة غزوة موقّتة كيف يصلح لذلك الأمر العظيم و هو ولاية امور جميع المسلمين العامة، و هي في مقام النبوة و صاحبها اولي بالمؤمنين من انفسهم.

و زبدة المخض ان بعث اسامة لا يصح أن يفسر إلا بأنه تدبير لاتمام أمر علي بن أبي طالب بمقتضي الظروف المحيطة به من تقدم النص علي علي و قرب أجل النبي (صلي الله عليه و آله) و علمه بأن هناك من لا يروق له ولاية ابن عمه، و بمقتضي الدلائل الموجودة في الواقعة نفسها: من تأمير فتي يافع و تكديس وجوه القوم و قوادهم في البعث و عدم دخول علي و من يميل اليه و امتناع جماعة عن الالتحاق بالجيش و حث النبي علي تنفيذه و غضبه من اعتراضهم و تخلفهم، و هو في مرض الفراق و الظرف دقيق علي المسلمين.

فهذا البعث في الوقت الذي كان تدبيرا لإخلاء المدينة

لعلي و حزبه كان حجة علي المستصـغرين لسنة و دليلا علي عدم صلاح غيره لهذا المنصب العظيم. فاذا كان الاخلاء لم يتم لتمانع القوم و عرقلتهم للبعث فان الحجة ثابتة مع الدهر.

و لا يصح للباحث ان يدعي أنّ السـبب الحقيقي لتخلف القوم هو ما تظاهروا به من عدم الرضـي بامارة قائدهم الصغير، و ان تذرعوا به من عذرا لا خفاء تلك الشنشـنة التي عرفها النبي من اخزم، لأنا نري ان لو كان هذا هو السـبب الحقيقي، لما تنفذ البعث بعد أن تم أمر الخلافة الذي به زال المانع الحقيقي، و المسـلمون الي النبي اطوع منهم الي ابي بكر لو كان يمنعهم صـغر القائد. و لم يتأب عمر نفسه بعد ذلك ان يخاطب اسامة بالامير طيلة حياته اعترافا بامارته.

اما الشـفقة علي النبي ان لم تكن عذرا آخر تذرعوا به فلا يصح ان تكون سببا حقيقيا، إذ ينبغي أن يكونوا عليه أشفق بالتحاقهم بالبعث، و قد غضب أشـد الغضب من تـأخرهم علي مـا فيه من حـال و مرض. و لئن ذهبوا يسـألون عنه الركبـان كان أكثر براً بنبيهم من أن يعصوا امره و يغضبوه ذلك الغضب المؤلم له.

و لو ان القوم كانوا قد امتثلوا الأمر لأصابوا خيرا كثيرا و لتبدل سـير التأريخ و مجري الحوادث تبدلا قد لا يحيط به حتي الخيال (و لو ان أهل القري لآمنوا و اتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء و الأرض و لكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون)

و لما وقع ما وقع بعد ذلك من خلاف بين المسلمين و تطاحن و حروب دموية انتهكت قوي الاسلام و اضعفت روحية الدين حتي انفصمت عري الجامعة الاسلامية سريعا و انتهكت حرمات الأحكام الدينية، فعاد الاسلام كما نشاهد اليوم غريبا كما بديء.

أي أمر عظيم و تدبير حازم صنعه النبي لسد باب كل خلاف يحدث ؟ (و كل أفعاله عظيمة) لو تم ما اراد. و لكن لا امر لمن لا يطاع.

ب ائتوني بكتف و دواة

قد شاهد النبي (صلي الله عليه و آله) ما كان من أمر عرقلة بعث اسامة، و هؤلاء القوم المتباطئون لم ينفع معهم صعوده المنبر عاصبا رأسه في أشد حال لا تقله رجلاه مما به من لغوب، مشددا عليهم النكير علي مقالتهم في حق اسامة و تخلفهم عن البعث.

و هي اول حادثة من نوعها تمر علي النبي في المدينة، لا يطاع امره و يتجاهل حكمه، و يتساهل في غضبه، ثمّ لا يستطيع ان ينفذ هذا الأمر و هو مصر علي تنفيذه الي آخر يوم من حياته إذ دخل عليه اسامة راجعا من الجرف فأمره بالسير غاديا.

لا شك ان مثل هذا الحادث يدعو الي تدبير آخر سريع

لاتمام الامر لعلي، و منه يتأكـد للنبي جليا ما عليه القوم من التواطؤ علي عـدم التقيـد بالنص علي علي. و هم إذ كانوا في حياته لا يطيعون أمره في هـذا السبيل فكيف اذن بعد وفاته. فلم يجد بعد هذا من خيرا من ان يكتب لهم كتابا فاصـلا لا يضـلون بعده ابدا، لأنه سـيكون امرا ثابتا لا يقبل التأويل و النكران و التناسي، لا كالكلام الذي لا يحفظ الا في الصدور و هي لا تسلم من دخل.

ما أعظمه من كتاب ؟

أهم لا يضلون بعده ابدا؟

ما أعظمها من نعمة!

بالله أ باللّه أ هكذا قال النبي ؟

نعم! لمـا اشـتد المرض به (يوم الخميس) و في البيت رجال منهم عمر بن الخطاب، قال (صـلي الله عليه و آله): (هلموا اكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده ابدا).

فأية فرصة غالية هذه يجب ان يقتنصـها الحاضرون لهم و لجيلهم للأجيال اللاحقة حتي الأبد؟ و أية نعمة كبري هذه لا تعادلها نعمة!... أما كان علي المسـلمين ان يستغلوها اعظم غنيمة فيسرعوا الي تلبية هذا الطلب ليخلد لهم الهدي ما بقوا؟ فأي شيء كان يؤخرهم عن اقتناص هذه النعمة ؟

او ليس عمر بن الخطاب حال دون هذا التدبير، فأوهي

منه عقدته المحكمة، فقال: (ان رسول الله قد غلبه الوجع أو ليهجر و عندكم القرآن و حسبنا كتاب الله)!. فاختلف الحضور و اكثروا اللغط و النقاش، منهم من يقول قربوا يكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده، و منهم من يقول: ما قال عمر.

فما تري نبي الرحمة صانعا بعد هذا؟ أ يكتب الكتاب و هو في زعم بعضهم علي حال مرض غالب (حاشا النبي الذي لا ينطق عن الهوي ان هو إلا وحي يوحي)، فكيف إذن يهتدون به و لا يضلون بعده ابدا، و قد وقع فيه الخلاف من الآن، و طعن بتلك الطعنة النجلاء التي لا سبر لها و لا غور. فلم يجد روحي فداه إلا ان ينهرهم و ينبههم علي خطأهم فقال: (قوموا. و لا ينبغي عند نبي نزاع) لتبقي هذه الحادثة حجة علي مرور القرون.

حقا انها لرزية من أعظم الرزايا سببت كل ضلال وقع و يقع بعد النبي. و حق لابن عباس حبر الأمة ان يبكي عند تذكرها حتي يخضب دمعه الحصباء و يقول: (ان الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله (صلي الله عليه و آله) و بين ان يكتب لهم ذلك الكتاب).

و ليفكر المفكر أي شيء كان يدعو عمر ليقول هذه المقالة القارصة في حق النبي المختار، و ما ضره لو كان يكتب هذا

الكتاب ليعصم الخلق عن الضلالة ابد الدهور و سجيس الليالي ؟

أ كان لا يحب أن يبقي الخلق علي هدي لا يضلون ؟

أم كان يعتقد حقيقة ان النبي ليهجر. و لكن لا يعتقد هذا الاعتقاد إلا من كان يجهل حقيقة النبي و ما جاء به القرآن من الآيات التي ندد بها علي المشركين. و ليس ذلك عمر. و ما باله لم يعتقد بهجر ابي بكر (و ليس شأنه شأن النبي) لما أوصي بالخلافة، و كان قد أغمي عليه اثناء تحرير الاستخلاف، فأتم ذلك عثمان بالنص علي عمر من دون علم ابي بكر، خشية ان يدركه الموت قبل الوصية، فأمضي ما كتبه عثمان لما استفاق.

أم ما ذا؟

ليتني أستطيع أن افهم غير انه علم بما سيكتبه النبي من النص علي علي، و قد سبق للنبي ان عبر مثل هذا التعبير في العترة يوم الغدير إذ ذكر الثقلين كتاب الله و عترته اهل بيته و وصفهما بأنهما لن يفترقا حتي يردا علي الحوض، ثمّ قال: (لن تضلوا ان اتبعتموها)(1) أو علي المشهور (لن تضلوا ما ان تمسكتم بهما ابدا) ففهم عمر من قوله: (لا تضلوا بعده ابدا) ما ذا سيريد ان يكتب الرسول. و يشهد لتنبه عمر

1- (1) مستدرك الحاكم (106:3).

لـذلك قوله: (حسـبنا كتـاب الله) إذ فهم ان غرض النبي ان يقرن الثقلين احـدهما بالآـخر فكأنه قال: يكفينا واحـد منهما و هو الكتاب و لا حاجة لنا بالآخر، و إلا فما كان معني لقوله حسبنا... و هو يدعي هجر النبي (صلي الله عليه و آله)

فكـانت هـذه المقالـة من عمر و المقالـة بمشـهد النبي للحيلولـة دون الكتـاب لعلي، اقـداما جريئـا جاء في وقته المناسب له قبل أن تفوت الفرصـة. و لا يشـبهه أي موقف آخر منه علي كثرة مواقفه في اتمام البيعـة لأبي بكر، كما سـنري في انكاره موت النبي و موقفه في السـقيفة و بعدها فانه هو الذي شيد(1) بيعة ابي بكر و كافح المخالفين. و لولاه لم يثبت لأبي بكر امر و لا قامت له قائمة: فقد كسر سيف الزبير، و دفع في صدر المقداد، و وطأ سعد بن عبادة و قال: اقتلوه فانه صاحب فتنة، و حطم انف الحباب بن المنذر، و توعد من لجأ الي بيت فاطمة عليها السلام و كان بيده عسيب نحل(2) بعد خروجهم من السقيفة يدعو الناس الي البيعة...

و لا يسـتطيع الباحث ان ينكر من عمر بن الخطاب تمالؤه علي علي بن ابي طالب و يقظته فيما يخص اسـتخلافه. و كـذلك جماعته الذين شاهدنا منهم التعاضد و التكاتف في اكثر

1- (1) راجع شرح ابن ابي الحديد (58:1).

2- (2) راجع كنز العمال (ج 3 رقم 2346 و 2363).

الحوادث كأبي بكر و ابي عبيـدة سالم مولي حذيفـة و معاذ بن جبل و اضـرابهم. و كذا علي نفسه ظاهر عليه جليا ميله عن هؤلاء في جميع مواقفه معهم حتي انه لم يبايع ابا بكر حتي ماتت فاطمـة فبايع مقهورا، و لم يدخل في حرب قط علي عهد الخلفاء الثلاثة، و هو ابن بجدتها و قطب رحاها. و كان يتهم عمر انه لم يشـد أزر ابي بكر إلا ليجعلها له بعـده فقال له مرة: (احلب حلبا لك شـطره اشـدد له اليوم أمره ليرده عليك غدا)(1) و قد صدقت فيه مقالته فاستخلف من قبل ابي بكر.

و هـل يخفي علي أحـد ما كان في القلوب من تنافر؟ و يكفي شاهـدا أن نسـمع المحاورة التي دارت بين عمر بن الخطاب و ابن عباس كما رواها ابن عباس(2).

عمر (لابن عباس): أ تدري ما منع قومكم منكم بعد محمد؟

ابن عباس: (و هو يكره أن يجيبه) ان لم أكن أدري فأمير المؤمنين يدريني.

: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة و الخلافة، فتبجحوا

1- (1) السياسة و الامامة: باب امامة ابي بكر. و شرح النهج (2:5).
2- (2) الطبري (31:5) و ابن الأثير (31:3) و شرح النهج (18:2).

علي قومكم بجحاً بجحاً، فاختارت قريش لأنفسها فأصابت و وفقت.

: يا أمير المؤمنين إن تأذن لي في الكلام و تمط عني الغضب تكلمت.

: تكلم:

: اما قولك: (اختارت قريش لأنفسها فأصابت و وفقت) فلو ان قريشاً اختارت لأنفسها حيث اختار الله عز و جل لها لكان الصواب بيدها غير مردود و محسود. و أما قولك: (انهم كرهوا ان تكون لنا النبوة و الخلافة) فان الله عز و جل وصف قوما بالكراهية فقال: (ذلك بأنهم كرهوا ما انزل الله فأحبط اعمالهم).

: هيهات! و الله يا ابن عباس قد كانت تبلغني عنك أشياء كنت أكره ان افرك عنها فتزيل منزلتك مني.

: و ما هي ؟ فان كانت حقاً فما ينبغي ان تزيل منزلتي منك و ان كنت باطلا فمثلي اماط الباطل عن نفسه.

: بلغني انك تقول انما صرفوها حسداً و ظلماً.

: اما قولك (ظلما) فقد تبين للجاهل و الحليم. و أما قولك (حسداً) فإن إبليس حسد آدم فنحن ولده المحسودون.

: هيهات! ابت و الله قلوبكم يا بني هاشم إلا حسداً ما يحول و ضغنا و غشا ما يزول.

: مهلا! لا تصف قلوب قوم اذهب الله عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا بالحسد و الغش، فان قلب رسول الله من بني هاشم.

: اليك عني ؟

***

نقلنا هذه المحاورة بطولها لانها تجلي كثيرا من الغوامض في بحثنا، فهي تكشف لنا:

(اولا) عما في نفوس الطرفين من نزوان بغضاء كامنة يستطير شرارها. و هذا ما أردنا استكشافه الآن و سقنا لأجله المحاورة.

و (ثانيا) عن ان القوم كانوا قد تعمدوا منع الأمر عن آل البيت، و ان منعهم كان عاطفيا كراهة اجتماع النبوة و الخلافة فيهم خشية تبجحهم، و قد فسر ابن عباس هذه الخشية بالحسد و انها من الظلم. و استشعر الألم الكامن من تأكيد هذه الكلمة (بجحا بجحا).

و (ثالثا) عن ان الامامة انما هي باختيار الله، و أن الخلافة في آل البيت مما انزله الله، و ليست تابعة لاختيار قريش و كراهتهم.

و (رابعا) عن ان ظلمهم لآل البيت بأخذها منهم مشهور يعرفه كل احد.

و هـذان الامران الأخيران صـرح بهما ابن عباس علي شـدة تحفظه و اتقائه غضب عمر الذي لم يسـلم منه بالأخير. و لم يرد عليه عمر الرد الـذي يكـذب هـذا التصـريح اكثر من الطعن فيه و في بني هـاشم ثمّ الزجر له بقوله: (اليك عني). و هـذا الزجر ينطق صـريحا بالعجز عن الجواب، فختمت به المحاورة.

و الغرض من كل ذلك ان اقدام عمر الجريء، علي نسبة الهجر الي النبي المعصوم، و علي دعوي ان كتاب الله وحده كاف للناس بلا حاجة الي شيء آخر علي عكس تصريح النبي، لا يستغرب منه ما دام القصد منع الأمر عن علي.

و قد اتضح ان بينهما ما لا يستطيع التأريخ نكرانه و التمويه فيه.

و أمـا اعتـذار بعض النـاس عنه بـأنه ظهر له ان الأـمر ليس للوجوب فهو اعتـذار بارد لا يقره العلم. فمن اين ظهر ذلك ؟ أمن قول النبي (لا تضـلوا بعـده أبدا) و هل هناك أمر اعظم مصـلحة في الحكم الشـرعي تجعله للوجوب من هداية الخلق اجمعين الي أبد الدهور ام من وقوع النزاع و غضب النبي و زجرهم بالانصراف. و اذا كان قد فهم الاستحباب فلما ذا يرده بأشنع كلمة لا يواجه بمثلها الرجل العادي من

الناس لا سيما عند المرض، أعني كلمة الهجر و الهذيان، مهما لطف العبارة بتحويلها الي كلمة (قد غلبه الوجع). ثمّ أي معني حينئذ لقوله: (حسبنا كتاب الله)، و هو رد علي النبي و تدخل في مصلحة الحكم و اساسه، و كان يغنيه ان يقول لا يجب علينا امتثال الأمر.

***

و الخلاصة إن الكتاب الذي أراد أن يكتبه النبي (صلي الله عليه و آله) من نفس وصفه له: (لا تضلوا بعده أبداً) و من نفس رد عمر (حسبنا كتاب الله) و من قرائن الأحوال المحيطة بالقصة بعد سبق توقف البعث عن الذهاب نعرف ان المقصود منه النص علي خليفته من بعده و هو علي بن أبي طالب، لا سيما ان كل خلاف بين المسلمين و كل ضلال وقع و يقع في الأمة هو ناشئ من الخلاف في أمر الخلافة فهو أسّ كل ضلالة. و لو تركوا النبي يكتب التصريح بالخلافة من بعده لما كان مجال للشك و الخلاف الا بالخروج رأسا عن الاسلام.

و ليس بالبعيد انه (صلي الله عليه و آله) امتنع عن التصريح شفاها أو كتبا بعد هذه القصة بالنص علي خليفته لئلا يأخذ اللجاج بالبعض الي الخروج علي الاسلام، فتكون المصيبة أعظم علي الاسلام و المسلمين و هذا ما حدا بعلي عليه السلام إلي المجاراة و المماشاة، فلذا قال في خطبته الشقشقية: (فطفقت أرتئي بين أن أصول بيد جذاء أو أصبر علي طخية عمياء...

فرأيت ان الصبر علي هاتا أحجي...). و سيأتي في الفصل الرابع الكلام عن موقفه مع الخلفاء تفصيلا.

ص:94

الفصل الثالث: بيعَة السقيفة..

اشارة

ص:95

(1 الدوافع لاجتماع السقيفة

(1)

تصور الأنصار انهم الـذين آووا و نصـروا يوم عز الناصـر، و أسـلموا يوم قحط المسـلمين، فبـذلوا للاسـلام نفوسـهم و اموالهم، فكانوا بحق (انصاراً) كما سـماهم النبي صـلي الله عليه و آله، و (حضـنة الاسلام و اعضاد الملة) كما دعتهم الزهراء عليها السلام في خطبتها الشهيرة عند مطالبتها بالنحلة.

اذن، لا بد أن يروا لأنفسهم حقا في الإسلام لا يغمط و سابقة ليست لغيرهم لا تنكر، و لهم في تشييده يد مشهورة و ذكر جميل.. و هذا ما يطمعهم في امارة المسلمين كجزاء

1- (1) السقيفة: الصفة و الظلة، و هي شبه البهو الواسع الطويل السقف. و كان لبني ساعدة بن كعب بن الخزرج و هم حي من الأنصار و منهم سـعد بن عبادة نقيبهم و رئيس خزرج ظلة يجلسون تحتها هي دار ندوتهم لفصل القضايا اشـتهرت (بسقيفة بني ساعدة). اجتمع فيها الأنصار اوسهم و خزرجهم ليبايعوا سعد بن عبادة خليفة بعد وفاة النبي صلي الله عليه و آله و سلم.

لتضحيتهم في سبيل الاسلام و كنتيجة لنجاحهم و تفوقهم علي العرب في النصرة و الايواء.

و من جهة ثانية: انهم كانوا قد وتروا قريشا و العرب؛ و أية ترة هي ؟ آووا و نصروا من سفه أحلامهم، و هم يحرقون الارم عليه ليقتلوه، فتمنع عن جبروتهم باولئك المستضعفين في نظر (أهل النواضح) و اكثر من ذلك انهم قتلوا صناديدهم و اسروا رجالهم و جعجعوا بهم حتي دانت بأسيافهم العرب. فكانت الأنصار و الحال هذه تتخوف هؤلاء الذين و تروهم اذا خلصت اليهم الامارة ان يأخذوهم بترتهم، و هم عندئذ المغلوبون علي أمرهم سوقة لا يملكون لأنفسهم قوة و لا دفاعا، و كفاهم ما سمعوه من النبي (صلي الله عليه و آله) مخاطبا لهم: (ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتي تلقوني علي الحوض). و المناظرة التي وقعت يوم السقيفة كانت تشير الي تخوفهم هذا، بل صرح الحباب بن المنذر إذ يقول: (و لكنا نخاف ان يليها بعدكم من قتلنا ابناءهم و آباءهم و اخوانهم). و قد صدقت فراسته فتولي الأمر بنو أمية و كان ما كان منهم في وقفة (الحرة) المخزية التي يندي منها جبين الشرف و الانسانية، و يبرأ منها الاسلام و أهله.

و شيء ثالث هناك: إذا كان صاحب الأمر هو علي بن أبي طالب، فلم يخف عليهم حسد العرب له و تمالؤها عليه،

و هي موتورة له اكثر من أي شـخص آخر من المسـلمين بعـد النبي، فلا تمكنه العرب و قريش خاصـة من امورهم. و ليس بعيدا عهد تأخر جيش اسامـة و الحيلولـة دون كتـاب النبي. و لا بـد انهم علموا بمؤامرات هناك و تفكيرات احسوها عيانا في جماعـة من الناس. فالأنصار و الحال هـذه قـد لا يرون كبير إثم في تطاولهم لمنصب الخلافـة، ما دامت خارجة عن معدنها، و لا يأمنون أن يتولاها من لا يحمدون مغبة أمره، و لا يجـدون غيرهم ممن يتطاولون لها اولي بها في نصـرة و خدمـة و تضـحية، و لعلهم لأجل هذا لما يئسوا من الأمر بعد محاولتهم الفاشلة و رأوه قد خرج من أيديهم ايضا قال كلهم أو بعضهم: (لا نبايع إلا عليا)(1) و لكن بعد خراب البصرة.

هـذه أسـباب قـد تقنع النفوس الاعتياديـة علي تنفيذ رغباتها، و تحملها علي الاعتقاد بصـحة ما يوحي اليها أهواؤها بقصد أو بغير قصد من جراء تأثير العاطفـة، فتعمي العين عن أوضـح ما يقوم في طريقها من نور للحق و دليل علي فساد ايحاء النفس بنزعاتها، و هـذا ما يؤيده علم النفس.

و إذا نحن تفهمنا هذه الحقائق و تدبرناها جيداً استطعنا ان نعرف السر في استباق الأنصار بهذه العجالة الي عقد

1- (1) الطبري (198:3) و ابن الأثير (157:2) و غيرهما.

اجتماعهم سراً في سقيفتهم، و استطعنا ان نعرف لما ذا كان سرياً بلا مشورة لمهاجرين و لا باقي المسلمين.

أجـل! ما هو إلا لأنهم طلبوا الغرة من أصـحاب الرسول و اهل بيته، فانتهزوا فرصـة انشـغالهم بفادحهم العظيم و بجهازهم نبيهم، ليحكموا البيعة لأحد نقبائهم و سيد الخزرج، أو لأي شخص آخر منهم قبل ان يفرغ أهلها أو طالبوها. و حينئذ ظنوا ان سيتم لهم كل شيء.

2 نفسية الأنصار

حاولنا في البحث السابق ان نتشـبث بما يرفع الأنصار عن سوء النيـة و القصد، و لكنا نؤمن بأن ما قلنا عنهم لا يخرج عن عدة من الوساوس التي لا تبرر عمل المرء من الناحية الدينية. علي انا نرجو ان يكونوا معذورين فيما عملوا لئلا نخسر عدداً وفيراً من الصحابة.

اما نفس عملهم سواء كانوا بسوء نية أم لا فلا يسـعنا ان نحكم بصـحته، فإنا مهما فرضـنا الحقيقة من جهة النص علي الامام فان اسـتبدادهم هذا و تسـرعهم في عقد اجتماعهم لنصب خليفة منهم لا يخرج عن عدة خيانة للاسلام و تفريطاً في حقوق المسلمين بلا مبرر، و في وقت قد دهمت الاسلام فيه هذه الفاجعة

الدهيماء، و المسلمون كالمذهولين بمصابهم لا يعلمون ما ذا سيلاقون من العرب و اعداء الاسلام.

و لا نريد الآن ان نجلس في دست القضاء لنحكم لهم أو عليهم، و لعل هناك من يري صحة عملهم فلا نضايقه، و إنما مهمتنا ان ندرس الاسباب التي دعتهم إلي عملهم هذا، و أن ندرس نفسياتهم.

في البحث السابق رأينا ان خدمتهم للاسلام الممتازة هي التي خيلت لهم الحق في الخلافة أو في سلطان المسلمين. و هذا نعرفه من حجتهم علي لسان المرشح منهم للخلافة سعد بن عبادة في خطبته ذلك اليوم، ينضم الي ذلك تخوفهم من ان يخلص الأمر الي من قتلوا أبناءهم و آباءهم و اخوانهم، مع اعتقادهم بخروج الأمر عن أهله، و يدل علي هذا الأخير كما تقدم طلبهم مبايعة علي بعد اليأس.

هذه الأسباب التي استطعنا عرفانها. و كل ذلك تقدم و فيها قبس نسير علي ضوئه لمعرفة نفسياتهم.

فانا نعرف مجموعها انهم في محاولتهم كانوا مدافعين اكثر منهم مهاجمين، و الدفاع دائما يكون عن الشعور بالضعف و الانخذال و هذا الشعور من أعظم الأدواء النفسية لمن أراد الظفر في الحياة، إذ ينشأ منه الوهن في العزيمة و الضعف في

الارادة و الاضطراب في الرأي و التدبير. و كل ذلك كان ظاهراً علي الأنصار في اجتماعهم بالسقيفة.

و الشاهد علي ذلك: انقسامهم علي انفسهم و انسحابهم امام خصومهم كما ستري، و أعظم من ذلك تنازلهم الي الشركة في الأمر من قبل أن ينازعهم منازع، اعني قبل مجيء جماعة المهاجرين اليهم، إذ قال قائلهم: (فانا نقول إذن أي عند ما ينازعوننا منا أمير و منكم أمير، و لن نرضي بدون هذا أبداً)، فقال لهم سعد: (هذا اول الوهن). و الحق انه اول الوهن و آخره. ثمّ يستمر معهم هذا التنازل حتي مجيء المهاجرين، فكرروا هذه الكلمة بالرغم علي تنبيه سعد لهم انها من الوهن.

و هذا يكشف ايضا عن سماحة في نفوسهم و لين في طباعهم، و يصدق ما قلناه انهم مدافعون اكثر منهم مهاجمين، فلم يطلبوا الامارة ليملكوا مقدرات الأمة و شئونها بل ليدفعوا ضرر من يخافون ضرره، فاكتفوا بالشركة التي يحصل بها الغرض من الدفاع.

و الانصاف ان الأنصار لا ينكر ما هم عليه من استكانة و استخذاء و قصر الرأي و التدبير، و ضعف في العزائم، و لا سيما امام دهاء قريش و قوتها، و ان حاول بعضهم و هو الحباب بن المنذر ان يستر هذا الضعف. إذ قال في خطابه

ذلـك اليوم: (يا معشـر الأنصار املكوا عليكم أمركم فان الناس في فيئكم و في ظلكم و لن يجترئ مجترئ علي خلافهم و لن يصـدر الناس إلا عن رأيكم. و أنتم اهل العزة و الثروة...). فاطرد خطبته علي هذا الاسـلوب زاعما ان سيرفع من منعتهم و بأسهم و يسد خللهم، و نهاهم عن الاختلاف و حـذرهم عواقبه حتي قـال: (فـان أبي هؤلاء فمنعكم أمير و منهم أمير). و لكنه كما تري بينا هو محلق في السـماء رفعه و تعاظمـا و يملي ارادته قوة إذا به يهبـط الي الحضـيض ضـعفا، إذ يقول: (فـان ابي هؤلاء..) و نقول له: فان ابي هؤلاء الشـركة ايضا فما أنتم صانعون ؟ لا شك ان ذلك الضـعف الذي يملي عليه التنازل هو ذلك الضعف عينه موجود ايضا سيملي عليه التنازل عن جميع الامر، كما وقع.

و هذا من تنازل الخائر المغلوب علي امره و تدبيره. و كانت عليه بذلك الحجة الظاهرة، فقال له عمر بن الخطاب:

(هيهات لا يجتمع اثنان في قرن) أو ما ينسق علي هـذا المعني، علي ان الحباب هـذا من أقوي من وجدنا يومئذ و اشـجعهم قلباً و أجرأهم لسانا، و أغلظهم علي المهاجرين، لو لا سعد بن عبادة.

الي هنا لعلنا لمسنا شيئا من نفسية الأنصار ادركنا مقدار الضعف في نفوسهم، و الوهن في عزائمهم، و الاضطراب في

تـدبيرهم. كيف و قـد تجلي ذلـك في الحباب لسانهم المفوه و خطيبهم المصـقع ذلك اليوم، و هو أقوي شـكيمة و اكثرهم اعتـداداً بنفسه و قومه، و كان يدعي بينهم (ذا الرأي).

بقي علينا ان نـدرك لما ذا كل هذا الحذر من الحباب من اختلافهم إذ يقول: (و لا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم و ينتقض عليكم أمركم)؟ لا بد انه كان يحس بشرارة الخلاف تقدح، و يتوجس خيفة من الانتقاض و هذا ما سنبحث عنه في الآتي.

3 الأنصار حزبان

إذ قيل الأنصار أرادوا البيعة لسعد، فانما هم الخزرج فقط دون الاوس(1). و إذا كان الاوس اجتمعوا في السقيفة مع الخزرج فانما هو علي ظـاهر الحـال، و لحس مشـترك بـالخوف ممن قتلوا آبـاءهم و ابنـاءهم أن ينـالوا الامـارة، و هم يبطنون في نفس الوقت للخزرج كمين أحن تتغلغل في صدورهم، فان بين الحيين دماء مطلولة ما زال نضخها علي سيوفهم و جروحاً

1- (1) و لذا يقول المؤرخون عند ذكرهم لبيعة الاوس: (فانكسر علي الخزرج ما كانوا اجمعوا عليه).

بالغة لا يلأم صدعها و لا يرجي رأبها. و كان آخر أيام حروبهم يوم (بُعاث) المشـهور و هو قبل الهجرة بست سـنين، و هو سـبب اسـلامهم علي ما قيل إذ جاء أحد القبيلين بعد يوم بعاث الي مكة يستنجد قريشا علي الفريق الثاني، فالتقوا بالنبي (صلي الله عليه و آله) و هداهم الله تعالي الي الاسلام.

و كان رئيس الاوس يوم بعاث حضـير الكتائب ابو اسيد بن حضير هذا الذي أفسد الأمر علي سعد و بايع أبا بكر و معه الاوس. و كان رئيس الخزرج عمرو بن النعمان، ابو النعمان صاحب راية المسلمين يوم احد(1).

و لـم يلطف الاسـلام كثيراً من تنافسـهم و تحاسـدهم، و ان اطفأ بينهم نار الحروب، فقد كانا يتصاولان تصاول الفحلين، لا تصـنع الأوس شيئـا إلا قالت الخزرج نفاسـة: لا يـذهبون بهـذا فضـلا علينا. فلا ينتهون حتي يوقعوا مثله. و كـذلك اذا فعلت الخزرج شـيئا قالت الأوس مقالتهم و صنعت صنعهم(2).

و من منافساتهم التي بلغت حد الافراط يوم اسـتعذر رسول الله من عبد الله بن ابي سـلول المنافق الشهير و هو من الخزرج فقال: (يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد

1- (1) راجع العقد الفريد (250:2).

2- (2) الطبري (7:3) و ابن الأثير (66:2).

بلغني عنه اذاه في أهلي.) الي آخر مـا قال، فقام سـعد بن معاذ رئيس الاوس فقال: (يا رسول الله انا و الله اعـذرك منه ان كان الاوس ضـربنا عنقه و إن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك) فتري سـعداً كيف تجاهل الشخص المعني و تحفظ عند ذكر الخزرج مما يدل علي شديد تنافسهم فقام سعد بن عبادة سيد الخزرج فقال لابن معاذ: (كذبت لعمر الله لا تقتله و لا تقدر علي قتله و لو كان من رهطك لما أحببت ان يقتل) فقام اسـيد بن حضـير ابن عم سـعد بن معاذ فقال لابن عبادة: (كذبت لعمر الله لنقتلنه فانك منافق تجادل عن المنافقين). فثار الحيان الاوس و الخزرج حتي هموا ان يقتتلوا و رسول الله قائم علي المنبر فنزل فخفضهم حتي سكتوا و سكت(1).

هكذا هم الاوس و الخزرج حزبان متنافسان متحاسدان و انما سـعد بن عبادة بادئ بدء يوم السقيفة أراد ان يستميل الاوس باسم الأنصار، و هم حزب واحـد امـام حزب المهـاجرين و قريش، فقـال معرضا بخصومهم في خطبته علي الأنصار: (يا معشـر الأنصار ان لكم سابقـة في الدين و فضيلة ليست لقبيلة من العرب.) و يقصد المهاجرين. و هكذا مضي في خطبته يضرب علي هذا الوتر الي ان اجابوه جميعا: (أن

1- (1) راجع البخاري (6:2 و 24:3).

وفقت في الرأي و أصبت في القول و لن نعدو ما أمرت، نوليك هذا الأمر، فأنت لنا مقنع و لصالح المؤمنين رضي).

ثمّ انهم ترادوا الكلام فيما إذا أبت المهاجرين من قريش بيعتهم، فقالت طائفة: (اذن نقول منا امير و منكم امير). فقال سعد: (هذا اول الوهن) و قد سبقت الاشارة اليه. و في الحقيقة انه اول الوهن و تنازل منهم عرفنا فيما سبق دلالته علي مبلغ ضعف ارادتهم امام ارادة قريش حتي قبل مواجهتهم، بل يدل ايضا علي تخلخل صفوفهم و وجود خلاف كامن كمون النار في الرماد، فلم يتأثروا بدعوة سعد، و أبطئوا عليه حتي داهمهم المهاجرون، و هم إنما اسرعوا الي عقد هذا الاجتماع ليسبقوا الحوادث، و إلا فقد كانت الفرصة الكافية لبيعته من قبل ان يعلم جماعة المهاجرون باجتماعهم فتكبسه عليهم. لو لا انهم اضاعوها باختلافهم و تباطئهم حتي مضي الوقت. و مثل هذه الامور بعرف الساسة لا تقبل الاناة و الابطاء.

و الحق ان الاوس كانوا غير مرتاحين لبيعة سعد، و هم يتنافسون مع الخزرج في أتفه الأشياء و ادناها، و كأنهم كانوا لا يريدون ان يبدءوها بالخلاف خشية أن يقال: (اوس و خزرج)، و في هذه الكلمة ما فيها من معان لا تتفق و روحية الاسلام، فيبتعدون عنها ما استطاعوا ان المجاملة محفوظة

بين الطرفين. و لـذلك لمـا رأوا المجال للوثبـة واسـعا نقضوا أمر سـعد و ما اجتمعت عليه الخزرج، و هـذا عنـد ما رأوا ان الخلاف جاء من الخزرج انفسـهم بمقالة بشـير بن سعد الخزرجي، و ستأتي، و باسراعه الي بيعة ابي بكر، و قد كان اول المبايعين. و ايضا رأوا ان الدعوة ضد سعد أنما جاءت من قبل غيرهم و هم المهاجرين.

فظهرت منهم حسـيكة الخلاف و التناقض، و قال بعضهم لبعض و فيهم اسيد بن حضير زعيمهم: (لئن وليتموها سعداً عليكم مرة واحدة لا زالت لهم بذلك الفضيلة و لا جعلوا لكم فيها نصيبا أبداً فقوموا فبايعوا ابا بكر) فقام اسيد فبايع و معه الاوس، و ليسأل السائل هل جُعل لهم نصيب فيها بمبايعتهم لأبي بكر؟ و لكنه التنافس هو الذي أملي عليهم هذا القول و منافسة القرابة ابعد أثراً و اعظم مفعولا.

هـذا و لا ينكر ما لأبي بكر من كبير أثر في اسـتمالة الاوس الي جانب المهاجرين، فقـد وقف موقفا مؤثراً و كان يعرف من اين تؤكل الكتف فلم يفته ما كان يعلمه من التنافس بين الحيين، حتي اسـتغله لانقاذ الموقف و برع في هذا الاستغلال، فقد قال في ذلك اليوم: (ان هذا الأمر ان تطاولت اليه الخزرج لم تقصـر عنه الاوس و ان تطاولت اليه الاوس لـم تقصر عنه الخزرج، و قد كانت بين الحيين قتلي لا تنسي و جراح لا

تداوي، فان نعق منكم ناعق جلس بين لحيي اسد يضغمه المهاجري و يجرحه الأنصاري)(1).

فانظر الي كلمة (لم تقصر) و ما لها من بليغ اثر في القلوب المتحاسدة و ما بها من تحريض لأحد المتناظرين علي نظيره المتطاول.

نعم! انهـا لتجعل لكل من الحيين الكفايـة تجاه الحي الآخر، فان تطاول احـدهما و هم الخزرج الآن فحقيق بالآخر ان يتطاول لها ككفتي ميزان، من غير فضيلة يختص بها المتطاول. فلا تسل كيف اشرأبّت اعناق الاوس لهذا الأمر؟

و بعـدها انظر كيف ذكر التراث السابقـة و نبش الـدفائن. و هـذا مـا يثير بالحفائظ و يوقظ الضـغائن. و هنا راح يسـتدل علي خطأ تولي أحد الحيين لهذا الأمر، لأنه يقع بين خصمين ألدين: فرماهم بالمسكنة كما يقول ابن دأب عيسي بن زيد.

اسـتطعنا في هـذا البحث أن نلمس التنافس بين الاوس و الخزرج لنعرف مدي تأثيره علي مجري حادث السـقيفة، كما عرفنا ان اهل الدعوة عند التحقيق انما هم الخزرج فقط، و لم تشاركهم الاوس مشاركة جدية.

1- (1) البيان و التبيين (3:181).

فلنترك الأنصار الآن مجتمعين في السقيفة يتبارون الخطب و يتحمسون لجهادهم و تضحيتهم، و سعد بن عبادة قد ترأس حفلهم يخطبهم و يقول في آخر خطبته: (استبدوا بالأمر دون الناس فانه لكم دون الناس) و لنذهب ميممين المهاجرين و باقي المسلمين حول دار النبي في المسجد، لنراهم ما ذا هم صانعون!

4 هل مات النبي محمد...؟

نعم! كان رسول الله صلي الله عليه و آله و سلم قد خرج في آخر فجر من حياته الي الصلاة، فصلي بالمسلمين الغداة. و كان هذا آخر عهدهم برؤية تلك الطلعة المحبوبة و ذلك النور الالهي.

و لم تزل شمس السماء إلا و قد آذنت شمس الأرض بالمغيب من افقها الي افق الحق الدائم، و ها هو ذا النبي مسجي بين اهله ينتدبون فيه حظهم، و الباب مغلق دون الناس.

انه يوم...! و أي يوم هو علي اهل المدينة و المسلمين!.

فقدوا...؟ و أية نعمة فقدوا...؟

فقدوا الرحمة و الانسانية. فقدوا الأخلاق الالهية. فقدوا

حياتهم و عزهم و مجدهم. فقدوا طريق الحق اللاحب و صراط الله المستقيم و نوره المشرق بآياته الباهرة...!

فقدوا نبيهم العظيم و أباهم الكريم...!

فاعظم بيومه يوما! و اعظم به فقيدا!

انه يوم كان للمسلمين مضرب المثل فاذا بالغوا في يوم مصيبة قالوا: (انه كيوم مات فيه رسول الله).

و ما تنتظر من المسلمين ساعة يسمعون الواعية و الباب مغلق علي من فيه، إلا ان يُهرعوا فيجتمعوا في مسجدهم و الطرقات، نكسا ابصارهم مطأطئي رءوسهم. و لم تبق عين لم تدمع؛ و لا قلب لم يجزع، و لا نفس لم يتقطع.

و ما ينتظرون هم...؟

لا شك ليس هناك ما يدعوهم الي تكذيب النعاة. و إذ علموا آنئذ أن مجري حياتهم قد تبدل راحوا و لا شك يتطلعون الي ما يظهر لهم علي مسرح العالم الاسلامي من حوادث و مفاجئات، فتطيش لذلك عقولهم، و يقوي حسهم بمستقبل هذا الدين الجديد الذي أخذ بأطراف الجزيرة، و المنافقون يتحينون به الفرص، فتنهد عزائمهم، و يستشرفون علي الأكثر علي خليفة النبي الذي سيقود الأمة لينقذ الموقف، فيضربون اخماسا في اسداس.

كل هذه الأفكار و أكثر منها بغير شك كانت تمر علي

رءوس ذلك الجمع الحاشـد الطائش اللب الحائر الفكر، الذي يحوم حول دار النبوة و الوحي، يرقب منها علي عادته ان تبعث له بما يطمئن خاطره و يهدئ روعه و يعرفه مستقبل أمره، حتي اصبح الناس كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية (كما في الحديث).

و لكن.. و لكن عمر بن الخطاب صاحب رسول الله ذلك الرجل الحديـدي أبي علي الناس تصـديقهم بموت نبيهم؛ إذ طلع صارخا مهددا (و قـد قطع عليهم تفكيرهم و هواجسـهم) و راح يهتف بهم: (مـا مـات رسول الله و لاـ يموت حتي يظهر دينه علي الـدين كله. و ليرجعن فليقطعن أيدي رجال و أرجلهم ممن ارجف بموته. لا أسمع رجلا يقول مات رسول الله إلا ضربته بسيفي).

أ تراك (لو خلوت بنفسك و أنت هادئ الأفكار) تقتنع بوحي هذه الفكرة من هذا الذي لا يقعقع له بالشـنان، و أنت لا تدري لما ذا رسول الله يقطع أيدي و أرجل من أرجف بموته، أو بالأصح من قال بموته ؟ و لأي ذنب يسـتحق الضرب بالسيف هذا القائل ؟ و من أين علم ان رسول الله لا يموت حتي يظهر دينه علي الـدين كله ؟ و ما هو هـذا الرجوع ؟ أ رجوع بعد الموت او بعد غيبة (كغيبة موسـي بن عمران كما يدعيها عمر بن الخطاب في بعض الحديث) و لكنها أية غيبة هذه و هو مسجي بين اهله لا حراك فيه ؟

إلا اني اعتقد انك لو كنت ممن ضمه هذا الاجتماع

لـذهبت بتيـاره و لتـأثرت بهـذا القول الي أبعـد حـد كسـائر من معـك ما دام الاجتماع بتلك الحال التي وصـفناها، و الخطيب هو عمر بن الخطاب، و قد جاء بتلك الدعوة الثائرة، في صـرامة ارادة و رأي بلغا أقصـي درجات الصـرامة، و قد استعمل المغريات الخلابة للجماعات: فمن أمل بحياة الرسول و باظهار دينه علي الـدين كله الي توعيـد بقطع رسول الله أيـدي و أرجل المرجفين بموته، و تهديـد منه (اعني عمر) بقتل من يقول مات رسول الله.

انهمـا الخوف و الأمـل إذا اجتمعـا مع هـذا الرأي القـاطع و الاـرادة الصارمـة لهمـا التـأثير العظيم الـذي لاـ يوصف علي افكـار الجماعة الاجتماعيـة و أي تخـدير بهمـا لأعصـاب المجتمعين. و من وراء ذلـك أن شـأن المحبين يتعللون في موت حبيبهم إذا نعي بالأوهـام و لا يرضون لأنفسهم التصديق بموته لا سيما مثل فقيدهم هذا العظيم الذي يجوز عليه ما لا يجوز علي البشر.

و لاـ شـك ان مميزات الجماعـة المقصودة لعلماء الاجتماع كانت متوفرة في الاجتماع الفجائي المضـطرب الأفكار المتأثر بهـذا الحـدث العظيم المتحفز للحوادث المجهولة و المفاجئات المنتظرة. و من البديهي ان الاجتماع الذي يتألف علي هذا النحو تتكون منه روح واحدة مشتركة حساسة تتغلب علي نفسيات أفراده الشخصية، و تكون هذه الروح خاضعة

لمؤثرات لاـ حكم لها غالبا علي روحيـة الفرد لو كان خارج الاجتماع. و أهم خواص هـذه الروح انها تكون عرضـة للتقلبات و الانقلابات الفجائيـة و يبطل فيها حكم العقل و سـلطانه و يقوي سـلطان المحاكاة و التقليد الأعمي. و لذلك لا تفكر الجماعات إلا بأحط فكرة فيها، و تقبل ايضا كل فكرة تعرض عليها إذا اقترنت بالمؤثرات الخلابة و ان خرجت عن حدود المعقول. و من أقوي المؤثرات شخصـية الخطيب و صرامة رأيه.

فلا نسـتغرب قناعـة المسـلمين يومئذ برأي عمر بقدر ما نسـتغرب منه نفسه هذا الرأي، و إن لم ينقل لنا صـريحا قبولهم له، كما لم ينقل في الوقت نفسه اعتراض أحـد عليه سوي ابي بكر و قـد جـاء متـأخرا. و إذا أبيت فعلي الأقل شـككهم في موت النبي و ألهاهم عن التفكير فيما يجب أن يكون بعده و فيما سيحدث من حوادث منتظرة، لأنهم لا شك التفوا حوله عجبين مستغربين و هو مستمر يبرق و يرعد مهددا حتي (ازبد شدقاه).

و لكلمـة (الارجاف) هنا التأثير البليغ في اقلاع أفكار الجماعات عن الدعوي التي يدعونها لأنها من الألفاظ الخلابة التي تتضـمن التهجين الشـنيع للدعوي و الاشمئزاز منها الي أبعد حد، إذ تشعر هنا ان مدعيها من المنافقين الذين لهم غرض مع النبي و الاسلام، فقال: (... ممن ارجف بموته)

ص:113

و لم يقل ممن ادعي أو قال. و هذا كاف للتأثير علي الجماعات و تكوين الشعور بكراهية دعواها.

و يشهد لتأثير كلامه علي سامعيه التجاء ابي بكر لما جاء من السنح(1) أن يكشف عن وجه النبي ليتحقق موته، ثمّ يخرج الي الناس مفندا مزاعم عمر، و عمر مستمر يحلف انه لم يمت. و طلب اليه ان يجلس فلم يجلس ثلاث مرات، فقال له: (أيها الحالف علي رسلك).. ثمّ قام خطيبا في ناحية اخري و قد اجتمع حوله الناس فتشهد و قال و عمر مستمر و قد تركه الناس:

(من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات، و من كان يعبد الله فان الله حي لا يموت...). ثمّ تلا هذه الآية الكريمة:

(أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلي أَعْقابِكُمْ ...)

و (شاهد ثان): أن الناس لما سمعوا كلام ابي بكر اصبحوا كأنما اخرجوا من مأزق أو اطلقوا ما عقال، فانهم تلقوا الآية كلهم و راحوا يلهجون بها (فما تسمع بشرا من الناس إلا يتلوها). أما عمر فقد صعق الي الأرض و صدق

1- (1) و هو يبعد عن المسجد بميل واحد (و في الرواية عن عائشة) و كذا في معجم البلدان و لعله اعتمد علي هذه الرواية. و لكن السنح هو عالية من عوالي المدينة و أدني العوالي بتقدير نفس المعجم يبعد أربعة أميال أو ثلاثة.

حينئذ بموت النبي بعد ان تحقق ان الآية من القرآن، كما يقول.

***

لله ابوك يا ابن الخطاب! ما أدهشني بك، و أنت و أنت، إذ تقف ذلك الموقف الرهيب حالفا مهددا، لتنكر أمرا واضحا، أ لم يعلمك الاسلام حقيقة محمد فتنكر انه يموت ؟ ثمّ تسمي مدعي موته (مرجفا)؟

لا؟

لا؟ و لكنك تحاول ان تقنع الناس انه غاب كموسي بن عمران، فيرجع ليقطع الأيدي و الأرجل. إلا انه بالله عليك أية غيبة هذه ؟

و أنت أعجب و أعجب حين تسرع مصدقا و تنقاد طائعا لقول قاله ابو بكر لا يكذبك و لا يصدقك، بعد ذلك التوعيد و التهديد. أ و لست أنت كنت تعترف انه يموت بعد ان يظهر دينه علي الدين كله ؟ فأي دليل كان في الآية ناقض قولك فأقنعك حتي صعقت الي الأرض. و الآية تدل علي انه يموت يوم مات!...؟

و اعجب من ذلك وقوفك بعد يوم معتذرا فتقول: (فاني قلت بالأمس مقالة ما كانت إلا عن رأيي و ما وجدتها في كتاب الله و لا كانت عهدا عهده الي رسول الله. و لكن كنت

ارجو ان يعيش رسول الله فيدبرنا و يكون آخرنا موتا)(1). فأين هذا الرجاء الفاتر من تلك الصرخة المعلنة و ذلك الحلف و التهديد و طعن القائل بموته بالارجاف ؟ و اين هذا الاعتذار الهادئ من تلك الدعوي الثائرة ؟

إن لك لسرا عظيما!

يبدو لي ان عمر كان أبعد من أن يظهر بهذه السهولة لقارئي هذه الحادثة. و من البعيد جدا و فوق البعد ان يعتقد مثله ان النبي لا يموت يوم مات، و هو الذي قال في مرضه كما سبق بكل رباطة جأش: (ان النبي قد غلبه الوجع... حسبنا كتاب الله). فأي معني تراه لقوله (حسبنا) لرد الكتاب الذي أراده النبي لأمته بعد موته، لو لم يكن معتقدا انه سيموت و ان كتاب الله يغني عن أي شيء آخر يريد ان يقرنه النبي به.

و هل تراه قال ما قال دهشة بالمصيبة ؟ فما باله لم يعتذر بذلك بعد يوم و قد سمعت اعتذاره! بل ما باله لم يزد دهشة

1- (1) اقتبسنا مجموع هذه العبارة من كنز العمال (129:3 و 53:4) و من تاريخ الطبري و ابن الأثير و البخاري (152:4) و السيرة الدخلانية (347:2) و لفظ (كنت أرجو ان يعيش...) في الصحيح و السيرة. و المروي في هذه الكتب و غيرها بألفاظ متقاربة جداً و تختلف بما لا يضر بالمعني.

لما تحقق انه قد مات! هيهات ان يكون قد دهش فيخفي عليه موت النبي و هو هو من نعرف.

و بعض النـاس قـد جهّلوا عمر بهـذا و ابعـدوا، فقالوا: من يجهل مثل هـذا الأمر الواضـح المعلوم بالاضـطرار جـدير بألا يكون إماما راعيا للأمة...

و التجأ بعضهم الآخر ان يعتذر عنه بأن ذلك من فرط دهشته.

و فيما عنـدي ان الطرفين لم يعرفاه حق عرفانه و لم يصـلا الي غوره و تـدبيره في هـذا الحادث المـدهش. فان من يعتقـد ان النبي قـد غاب فيحلف لا يقنعه مثل حجة ابي بكر فيرتدع و من خبل بالمصيبة فهو عند اليقين بها ادهش و ادهش.

***

و يكفي المتـدبر في مجموع نقاط هـذه الحادثـة ان يفهم هـذا الذي لا يختل بالحرش، فيعرف ان وراء الاكمة ما وراءها، و لا يضـعه حيث وضعه الناس.

أ لا تعتقد معي انه كان يخشي ان يحدث القوم ما لا يريد، و قد اشرأبت الأعناق بطبيعة الحال الي من سيخلف النبي، و هذه ساعة طائشة، و ابو بكر بالسنح غائب، و هو خدنه و ساعده، و هما اينما كانا هما. و لعلهما

وحـدهما قـد تفاهما في هذا الأمر... فأراد ان يصـرف القوم عما هم فيه، و يحول تفكيرهم الي ناحية اخري، ان لم يجعلهم يعتقدون غياب النبي. حتي لا يحـدثوا بيعـة لأحـد من الناس قبل وصول صاحبه. و ليس هناك من تحوم حوله الأفكار إلا عليا للنص عليه كما نعتقد او لأنه اولي الناس، ما شئت فقل (حتي كان عامة المهاجرين و جل الأنصار لا يشكون ان عليا هو صاحب الأمر بعد رسول الله)(1).

و كانوا يلاحظون في علي بن ابي طالب صـغر سنّه(2) و حسـد العرب و قريش خاصـة إياه، و تمالؤها عليه، و لا تعصب الدماء التي اراقها الاسلام إلا به، لأنه الأمثل، في عشيرة الرسول علي عادة العرب و بسيفه قتل اكثر ابطالهم.

و يلاـحظون (رابعـا) كراهـة قريش لاجتمـاع النبوة و الخلافـة في بني هـاشم فيبجحون علي قومهم بجحا بجحا كما يراه عمر فيما سـبق في الفصل الثاني من محاورته مع ابن عباس. و يلاحظون (خامسا) انه سيحملهم إذا ولي الأمر علي الحق الأبلج و المحجة البيضاء و ان كرهوا (علي حد تعبير عمر نفسه)، و الحق مر في الأذواق.

و يظهر أن عمر كان بطل المعارضة في إمارة علي كما

1- (1) شرح النهج لابن أبي الحديد (8:2).

2- (2) راجع الامامة و السياسة.

شاهدنا موقفه في قصة الكتاب الذي أراد ان يكتبه النبي و في مواقفه التي أشرنا اليها في الفصل الثاني، فلا نعجب إذا رأيناه يقف هذا الموقف ليلهي الناس عما يخشاه من استباق احد الي بيعة علي قبل مجيء ابي بكر.

اما انه هل كان يـدري كيف سـيخرج من هـذا المأزق الـذي ادخل نفسه فيه فاغلب الظن انه غامر بنفسه ليقف الناس عنـد حـدهم. و علي صاحبه إذا جاء ان يدبر الأمر حينئذ.

و اقوي الشواهـد علي هذا التعليل ما قلناه من سـرعة قناعته بقول صاحبه ابي بكر، و هو لا يمس دعواه تكذيبا... و ليس إلا ان جاء ابو بكر و وقف خطيبا و التف حوله الناس و هو يعلم من ابو بكر فقـد انتهت مهمته و انقلب الدور، و لم يبق إلا ان يخرج من موقفه الحرج بلباقة، لئلا يحسوا بهـذا التدبير فينتقض الغرض، فصـعق الي الأرض كأنما تحقق موت النبي من جديد مظهرا القناعة بقول صاحبه. ثمّ لم يلبث ان راح يشـتد معه لعملهما كأنما نشط من عقال و لم يقل ما قال، و لم يظهر ما أظهر من الدهشـة و الاضـطراب، حتي رُمي بالخبل و هو عنه بعيد، فقد ذهب بعد ذلك الي السقيفة مع ابي بكر حينما علما باجتماع الأنصار السري و وقفا ذلك الموقف العجيب، و سنحدثك:

ص:119

5 وصول النبأ باجتماع الأنصار

لم يهدنا التأريخ الي أن أبا بكر و عمر أي شيء صنعا مباشرة بعد حادثة انكار موت النبي و اجتماعهما، و اين كانا قبل ذهابهما الي السقيفة فهل دخلا- الي دار النبي معا و الباب مغلق دون الناس، او انهما وقفا علي الباب، او ان ابا بكر وحده دخل الدار؟ كل واحد من هذه الاحتمالات يستشعر فيه حدث و جائز وقوعها جميعا.

و لكن مثلهما جدير به إلا يبارح دار النبي (صلي الله عليه و آله) في مثل هذه الساعة، و إذا كان شيء يحدث فانما يحدث هاهنا، و محوره هذا المشغول بجهاز النبي (علي بن ابي طالب)، و من كان يتهم ان الأنصار تستبد بهذا الأمر علي آل البيت و المهاجرين و تطمع فيه دونهم فتبادر إلي اجتماعها معرضة عمن لهم شأن لا ينكر في هذا الأمر.

و اغلب الظن انه لم يطل الزمن علي وصولهما الي الدار حتي جاء اثنان من الأوس مسرعين الي دار النبي، و هما(1) معن بن عدي و عويم بن ساعدة، و كان بينهما و بين

1- (1) ذكر ذلك في العقد الفريد (63:3) و في الجزء الثاني من شرح النهج و لم نر غيرهما يصرح باسم الشخص المخبر. و لكن عمر بن الخطاب نفسه يحدثنا أنه صادفها في ذهابها الي السقيفة، فأشار عليهم بالرجوع ليقضوا أمرهم بينهم. و احسب ان عمر أراد أن يحفظ لهما هذه اليد، فيكتم عليهما غايتهما هذه علي قومهما دفاعا عنهما، لأن الأنصار اجتمعت بعد بيعة ابي بكر في محفل فدعوهما و عيروهما بانطلاقهما الي المهاجرين واكبوا فعلهما فخطبا فردت عليهما الأنصار و أغلظوا و فحشوا عليهما و كل منهما قال شعرا: (راجع شرح النهج 11:2 نقلا عن كتاب الموفقيات للزبير بن بكار).

سعد الخزرجي المرشح للخلافة موجدة قديمة، فأخذ معن بيد عمر بن الخطاب، و لكن عمر مشغول بأعظم امر، فلم يشأ ان يصغي اليه، لو لا ان يبدو علي معن الاهتمام إذ يقول له: (لا بد من قيام)، فأسـر اليه باجتماع الأنصار ففزع اشد الفزع، و هو الآخر يصـنع بأبي بكر ما صنع معن معه، فيسـر الي ابي بكر بالأمر، و هو يفزع ايضا اشد الفزع. فذهبا يتقاودان مسـرعين الي حيث مجتمع الأنصار، و تبعهما ابو عبيدة بن الجراح، فتماشوا الي الأنصار ثلاثتهم(1).

اما علي و أما من في الدار و في غير الدار من بني هاشم و باقي المهاجرين و المسلمين، فلم يعلموا بكل الذي حدث و بما عزم عليه ابو بكر و عمر.

و لما ذا؟ أ لم تكن هذه الفتنة التي فزعا لها اشد الفزع تعم

1- (1) الطبري (208:3).

جميع المسلمين بخيرها و شرها و أخص ما تخص عليا ثمّ بني هاشم ؟ أو ليس من الجدير بهما ان يوقفاهم علي جلية الأمر ليشاركوهما علي اطفاء نار الفتنة الذي دعاهما الي الذهاب الي مجتمع الأنصار مسرعين ؟ ثمّ لما ذا يخص عمر ابا بكر دون الناس ثمّ أبا عبيدة ؟

ليس من السهل الاحاطة بأسرار ذلك التكتم و هذا التخصيص، و هو موضوع بكر لم يقرع بابه الباحثون. و لكنا إذا علمنا ان الجماعة كانوا يلاحظون في علي تلك الامور التي ذكرناها في البحث السابق فيحذرون ان يستبق الي بيعته مستبق، نجد منفذا الي خبايا هذا التكتم و نطمئن الي انهم رأوا الأصلح لهم ان يتداركوا الأمر بأنفسهم من دون ان يشيع الخبر و حينئذ يستطيعون ان يهيمنوا علي الوضع و لا يقع ما يحذرون، إذ يكسبون علي الأنصار اجتماعهم السري في جو هادئ ممن يتحمس لعلي. و هذا التخصيص من عمر يشجعنا علي ان ندرك التفاهم السري بينه و بين ابي بكر بل بينهما و بين ابي عبيدة في هذا الشأن بل بينهم و بين سالم مولي ابي حذيفة. و لذلك وجدنا عمر بي الخطاب يأسف عند الموت الا يكون واحد من هذين (ابي عبيدة و سالم) حيا حتي يجعل الخلافة فيه من بعده، مع ان سالما ليس من قريش.

و إذا كانوا لم يلاحظوا في علي ما قلناه، فمن هو أجدر منه بالاخبار بهذا الأمر و من أجدر من قومه بني هاشم، و علي

ليس ذلك الرجل الذي يستهان بشأنه و يستصغر قدره حتي لا يستشار و لا يخبر بمثل هذا الأمر الخطير، و هو ان لم يكن منصوصا عليه بالخلافة فان مؤاخاة النبي له مرتين دون سائر الخلق و جعله منه بمنزلة هارون من موسي و هو أحب الناس اليه و مولي كل من كان مولاه و ولي كل مؤمن بعده و وارثه و وصيه و يدور الحق معه كيفما دار... كل هذا و غيره ما شئت ان تحدث يجعل له المنزلة الأولي في هذا الشأن ليستشار علي الأقل.

و لئن كان مشغولا عنهم بجهاز النبي (صلي الله عليه و آله) فجدير بأن يكون علي خبر من ذلك ليكون ردا لهم عند حدوث ما يكره، و هم مقدمون علي أمر عظيم، و علي من لا ينكر في شجاعته و بطولته و ايمانه و تفانيه في سبيل نصرة الاسلام. و لكنه بالرغم من ذلك كله لم يعلم بالحادث إلا بعد ان سمع التكبير من المسجد عاليا، و قد فرغوا من اجتماع السقيفة و جاءوا بأبي بكر يبايعونه البيعة العامة.

و لست في تعليلي هذا أدعي الاحاطة بأسرار هذا التكتم و إنما ذكرت ما يبدو لي عند البحث مقتنعا انه أهم أسراره و عسي ان يكون هناك من يستطيع ان يشبع الموضوع بحثا، فيزيدنا علما علي علم أو يكشف لنا انا علي جهل.

6 تأثير دخول المهاجرين في اجتماع الأنصار

لنجيء الآن مع ابي بكر و عمر و ابي عبيدة الي السقيفة، فنري الأنصار مجتمعين يتداولون الحديث، و سعد بن عبادة بينهم مزّمل وجع يخطب فيهم و قد ترأس حفلهم مرشحا للخلافة. و لا نشك ان الأنصار الآن في لغط و حماس، قد اخذت الأنانية و الفخر بأطرافهم معدين للوثبة عدتها، يريدون في اجتماعهم السري هذا ان يقبضوا علي ناصية هذا الامر العظيم، و ليس امامهم من يطاولهم.

و إذ يدخل عليهم وجوه المهاجرين فجأة لا بد ان يسقط ما في أيديهم بافتضاح امرهم قبل ابرامه، و بتخوفهم من خروجه من ايديهم بعد ما قالوا و صنعوا. و لا بد ان يرتبكوا لذلك و يقوي فيهم شعور الخذلان. و قد عرفنا نفسياتهم التي يتغلب عليها الضعف، فيتغير عليهم مجري الحادثة. و هنا ينقلب الدور فيتهيئون لمواجهة هذا الحادث الجديد بما يقتضيه: فمن كان يبغض الامارة لسعد وجد الفرصة قد حانت للانتقاض عليه، و بالعكس اصحابه الذين يوادونه لا بد ان ينقلبوا مدافعين. و هذا أول تبدل في حالهم و انخذال في اجتماعهم.

و بعد دخول جماعة المهاجرين هذا الاجتماع و سؤالهم عن

هذا المزمل من هو؟ و ما شأنه ؟ نري عمر يذهب ليبتدئ النطق، و قد زور في نفسه مقالة في الطريق ليقولها بين يدي ابي بكر، و كان يخشي جـد ابي بكر أو حدته، و كان ذا جد كما يقول هو. و من الواضح ان الموقف دقيق جدا يدعو الي كثير من اللين و اللباقة رعاية لهذه العواطف الثـائرة المتحفزة، و لكن ابا بكر يمنع عمر من ابتـداء الكلام، و كأنه هو ايضا يرقب شـدته و غلظته المعروفتين فيه فانطلق يتكلم، و ما شـيء كان زوره عمر إلا أتي به أو بأحسن منه علي ما يحدثنا عمر نفسه.

و لقد كان ابو بكر يحسن المعرفة بما يتطلب هذا الوضع من الرفق و السياسة، أولا تري لما كادوا ان يطئوا سعدا قال قائل: قتلتم سعدا.. فقال عمر و هو مغضب: (اقتلوا سعداً قتله الله انه صاحب فتنة) فالتفت اليه ابو بكر قائلا: (مهلا يا عمر! الرفق هنا ابلغ).

و لا اعتقـد مع ذلك ان عمر كان يجهل ضـرورة الموقف، و لكني اخاله و قـد تمت البيعـة لأبي بكر لم يجـد حاجـة لكثير من هـذا اللين و المـداراة، و قـد أخـذ بموافقـة الأنصار إلا القليل، و تحقق فشل سـعد و انخذاله. فهو اذن يعرف موضـعي اللين و الشدة. و لعله و هو رجل الساعة بعد أبي بكر أراد ان يظهر بالغلظة لينطق ابا بكر بكلمة اللين.

7 تأثير خطب أبي بكر علي المجتمعين

من المتيقن ان الرجـال الـذين سادوا الأمم و الجماعات فأحسـنوا سـيادتهم هم من ابرع الناس في علم الاجتماع و هم لا يشـعرون. و إنما جبلوا علي معرفة فطرية تشـحذها التجارب التي تخلق في النفس الملكة علي تطبيق النظريات عند الحاجة. و ابو بكر و عمر هما من اولئك الناس الذين عرفوا خواص نفسية الجماعات و كيف يمكن التأثير عليها في الوقت المناسب كما دلت الحوادث المتكررة علي ذلك.

و لا شك ان مميزات الجماعـة المقصودة لعلماء الاجتماع كانت متوفرة ايضا هنا أتم من توفرها في اجتماع المسـجد غب موت النبي الذي أشـرنا اليه سابقا: فقد كان الاجتماع حافلا التجأ فيه سـعد بن عبادة أن ينيب عنه ابنه أو بعض بني عمه في إلقاء كلامه، فيرفع به صوته ليسمع المجتمعين. و قـد اجتمعوا لغرض واحـد حسـاس اعني تـأمير من يخلف ذلـك النبي العظيم، ليكون علي رأس هـذه الامـة الكبيرة القوية المستجدة، و هم علي ما هم عليه من الحال التي وصفناها من التوثب و الشعور بالاستحقاق و التكتم.

و أظنك عرفت في البحث الأسبق ان الاجتماع الذي يتألف علي هذا النحو كيف يطلع فيه قرن العاطفة و يأزر

رأس العقل و التفكير في المجتمعين فيصبح عرضة للتقلبات و الانقلابات الفجائية و يقوي فيه سلطان المحاكاة و التقليد الأعمي. بل تظهر عليه الأعراض المتناقضة، فبينا تجده قد يقوم بأعمال وحشية جبارة تدل علي شجاعة افراده البالغة حدها تجده مرة اخري يجبن من الصفير. و بينا تراه يأتي بأعمال صبيانية مضحكة تراه تارة اخري يحكم التدبير و التنظيم. و ما ذلك إلا من سجية المحاكاة الموجودة في كل انسان فتسود علي المجتمع عند ما يبطل حكم العقل و حينئذ يكون تابعا مسخرا لكل من يحسن تسخيره بالمؤثرات التي تهيمن علي العاطفة كالمنوم تنويما مغناطيسيا.

و نحن إذ فهمنا جيدا هذه البديهيات عن روحية الجماعات، و لاحظنا توفر شروط الجماعة الاجتماعية في جماعة السقيفة، نفهم معني تلك الأساليب التي اتبعها ابو بكر و صاحبه كما ستري للتأثير علي المجتمعين يومئذ و نفهم سر تأثر جماعة الأنصار و انقلابهم الفجائي علي انفسهم، فأخذ ابو بكر و عمر الأمر من أيديهم باختيارهم. علي انهما في جنب قوة الأنصار و اعتزازهم بجمعهم تلك الساعة لا يعدان شيئا، و ليس من المهاجرين معهما إلا أبو عبيدة بن الجراح كما سبق و سالم مولي أبي حذيفة علي رواية. فاسمع الآن الي الأساليب التي قلنا عنها:

لقد رأينا سابقا كيف حرش ابو بكر بين الأنصار، و أثار

عواطف الأوس علي الخزرج. و قد صادف منهم نفوسا متهيئة الوثبة علي سعد. حتي استمالهم الي جانبه و هم يشعرون أو لا يشعرون. في حين انهم يعلمون ان الأمر إذا كان للأنصار و ان تولاه رئيس الخزرج فهو الي حيازتهم أقرب و إلي سلطانهم أدني. و لكن للعاطفة هنا سلطانها القاهر علي النفس لا يقف في وجهها أي سور محكم من النطق و التفكير.

و لنفحص الآن (خطبته) التي واجههم بها في أول الملاقاة و قال عنها عمر: (ما شيء كان زورته في الطريق إلا اتي به أو بأحسن منه) فانه ذكر فيها اولاً ما للمهاجرين من فضل و سابقة في الإسلام بأنهم أول من عبد الله في الارض و آمن بالله و بالرسول و انهم اولياؤه و عشيرته و احق اناس بهذا الأمر (أي الخلافة) من بعده. و أن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش، و انهم لا ينازعهم في ذلك إلا ظالم...! ثمّ خاطب الانصار فلم يغمط حقهم و سابقهم و جهادهم، لكن...

لكن من غير استحقاق لهذا الأمر، و إذا استحقوا شيئا فانما هي (الوزارة)... و لغيرهم... (الامارة)، فقال:

(... و أنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلكم في الدين و لا سابقتكم العظيمة في الاسلام. رضيكم الله انصارا لدينه و لرسوله و جعل اليكم هجرته، و فيكم جلة أزواجه

و أصحابه، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم، فنحن الأمراء و أنتم الوزراء)(1).

و في هذا البيان الشيء المدهش من اطفاء نار عواطفهم المتأججة ضد المهاجرين، و اشباع نهمة نفوسهم الفخورة المتطاولة بفضلهم، و جهادهم و نصرتهم، و تقريبها الي المهاجرين للاعتراف بفضلهم عليهم، لأنه ليس اقوي علي تخدير أعصاب الجماعة الهائجة من الذهاب مع تيار روحهم المندفعين بها، فأعطي لهم ما يسألون بلسان حالهم من الاعتراف بالفضل و الجهاد و كل فخر يشعرون به متطاولين.

حقاً لقد صدق و صدقوا، فان لهم الفضل الذي لا ينكر، و لكنهم أخطئوا بزعمهم ان لهم بذلك حق الامارة، و هنا نجد أبا بكر يريد أن يحولهم عن هذا الزعم، فيحذر أن يخدش عواطفهم بما ينقص منزلتهم و يحط من مقامهم، فعدل عن التصريح بكلمة الخطأ أو ما ينسق عليها من معناها، و اتبع اسلوبا آخر من البيان و انه لمن السحر المأثور فلم يزد علي كلمة: (فليس بعد المهاجرين الاولين عندنا بمنزلتكم فنحن الامراء و أنتم الوزراء). و فيها تنبيه علي خطأهم من طرف خفي من دون التجاء الي الكلمة التي بها تجرح عواطفهم و تثير الحزازات مع الثناء عليهم في نفس الوقت ثمّ اثبات الوزارة لهم

1- (1) الطبري (208:3).

و إذا أردت التدقيق في هذه الكلمة تري الشـيء الأعجب: فهو الآن يريد أن يفضل المهاجرين الأولين (الأولين بالخصوص!) عليهم، ليثبت لهم اسـتحقاق الخلافة، و لو كان وضعهما في طرفين و فضل المهاجرين لأثار ذلك بحفيظتهم و حرش بين خصمين متطاولين من القديم، فعدل عن منطوق مقصوده و التاف اليهم من طريق تفضـيل الأنصار أنفسهم علي الناس و القي في الطريق كلمة (بعد المهاجرين الأولين)، فتظاهر انه يريد ان يقول: ليس أحد بمنزلة الأنصار. و أن مقصوده ليس غير، و إنما اسـتثني المهاجرين كأمر ثابت مقرر لا يتطرق اليه الشك و ليس محلا للنقاش لا لأنه المقصود في البيان.

هنا إذ تهدأ تلك النفوس الجامحة في الجماعة راضـية بما قيل فيها وفق شـعورها تتفكك أوصالها و ترجع من حيث جاءت كأنما حصل لها كل ما تصـبو اليه. و هذا من انحطاط نفسـية الجماعات، فلا تشعر بالنتيجة التي يراد أخذها منها و ان خالفت تفكيرها عند التأمل، لأن عادة الجماعة في الأفكار ان تقبلها جملة أو تردها جملة، و لا طاقة لها علي التأمل و التفكيك بين الأفكار و لا صبر لها علي التمييز.

مضافا الي ان الوعد بجعلهم الوزراء لا يفتاتون بمشورة و لا تقضـي الامراء دونهم الامور يطمئن من رغباتهم و اطماعهم، و يذهب بخوفهم من الاستبداد عليهم و أخذ الثأر منهم،

و يسدل علي ما حاولوه ستارا كثيفا من النسيان. و بعبارة أصح، يأخذ أثره الوقتي و تلهو الجماعة عن صدق الوفاء و لا تحتاج الي التدليل عليه، و لا يكلف قائله إلا الوعد و بهرجة الكلام.

و هناك كلمتان أخريان في تلك العبارة التي حللناها لا يفوتنا أن نتعرف اليهما و إلي ما فيهما من معني أخاذ.

الاولي كلمة (الأولين) فأبعدهم بها عن شعور الخصومة الموجودة للمهاجرين عامة. و المهاجرين و الأنصار حزبان متطاولان و قد كان تنافسهما أمرا واضحا للعيان في زمن الرسول و بعده حتي قال لهم النبي يوما: (ما بال دعوي اهل الجاهلية)، و ذلك عند ما قال الأنصاري: (يا للأنصار!) و قال المهاجرين: (يا للمهاجرين) فأقبل جمع من الجيشين و شهروا السلاح حتي كاد ان تكون فتنة عظيمة، في قصة مشهورة(1) فتجد ابا بكر بتخصيص المهاجرين بالأولين كيف اتقي شعور الأنصار بخصومتهم لعامة المهاجرين، و هم لا ينكرون ما للأولين من فضل و قد سبقوهم الي الاسلام و عبادة الرحمن علي انه بهذا التخصيص قرب نفسه و صاحبيه الي هذا الأمر.

الثانية كلمة (عندنا) فانظر الي ما فيها من قوة

1- (1) راجع البخاري (165:2 و 126:3).

سحريـة إذ رفع بها عن مقام القرن المنازع للأنصار، و أخرجها عن الحزبين: الأنصار و المهاجرين، و نصب نفسه بها كحكم بينهما يفضـل هـذا علي ذاك ثمّ يختار لهم ما فيه الصـلاح. و هـذا له الأثر البليغ في اخماد نار عاطفة التعصب عليه، و يعطيه ايضا منزلة في نفوسـهم هي أعلي و أرفع تجعل له نفوذ الحكم المستشار و الزعيم للفريقين و علي العكس فيما لو نصب نفسه مزاحما لهم مطالبا بحق يعود له و لحزبه. و شأن الجماهير انها لا تنتظر الدليل علي الدعاوي البراقة المبهرجة. لأن التصوير و لو بالألفاظ له الحكم الفصل علي نفسياتها.

فارجع الآن الي تلك العبارة و دققها! و هي جعجعة تسحن الجماعات من غير طحن، و إلا فمن المقصود بضمير (عندنا) يتكلم عنه ابو بكر غير جماعـة المهـاجرين و هو منهم، و علي تقـديره فمن الـذي خوله ان يمثل المهاجرين بشـخصه ؟... و لكنه جرد من نفسه (و معه غيره) حكما مفضلا، عنده المهاجرين أفضل من الأنصار و ليس بمنزلة الأنصار أحد بعدهم.

فلا نعجب بعد عرفاننا هذه الاساليب التي لها القوة السـحرية علي الجماعات ان يأخذ ابو بكر بناصية الحال، و يستهوي المجتمعين لينظروا اليه بقلوبهم لا بعقولهم، فيصرفهم كيف يريد. فانتظر نتيجة تأثيره عليهم.

ص:132

8 نقاش المهاجرين و الأنصار

قرأنا في الفصل السابق خطبة ابي بكر و ما فيها من الأساليب فلنر مدي تأثيرها علي المجتمعين و كيف كانت النتيجة ؟:

لم يردّ عليه إلا الحباب بن المنـذر في كلامه المتقدم في البحث رقم (2) و قد رأيناه لم يأت بشـيء و كان اول منخذل امام المهاجرين و إن ظهر بالقوة التي تلاشت في آخر كلامه كما شرحناه، ففتح علي نفسه باب الحجة الظاهرة إذ قال:

(فمنكم أمير و منهم أمير)، علي انه ظهر جليـا بمظهر المتعصب المغـالب، فاسـتهل كلامه بقوله: (املكوا عليكم أمركم....) و هـذا مردود عليه معكوس الاثر، و سيأتي.

و هنـا. جـاء دور عمر بن الخطـاب فقـال: (هيهات! لا يجتمع اثنان في قرن. و الله لا ترضـي العرب ان يؤمروكم و نبيها من غيركم، و لكن العرب لا تمتنع ان تولي أمرها من كانت النبوة فيهم و ولي امورهم منهم. و لنا بـذلك من أبي من العرب الحجة الظاهرة و السـلطان المبين. من ذا ينازعنا سلطان محمد و إمارته و نحن اولياؤه و عشيرته إلا مدل بباطل أو متجانف لا ثمّ أو متورط في هلكة).

فتجد كلام عمر هذا و ان كان هادئاً لا يبلغ كلام ابي

ص:133

بكر، إذ ظهر بمظهر الخصم المدعي بحق الامارة. و كأن ابا بكر فسح له المجال لأن يكون هو المدعي العام عن المهاجرين بعد ان نصب نفسه كحكم للمتنازعين. كما نلاحظ ايضا انه لم يشر الي قضية النص علي قريش أو علي خصوص واحد منهم، و إنما القضية قضية رضي العرب و ابائها و ان المهاجرين اولياء محمد و عشيرته. و لذا قال علي عليه السلام بعد ذلك: (احتجوا بالشجرة و اضاعوا الثمرة).

فقام الحباب بعد عمر فقال: (يا معشر الانصار املكوا عليكم امركم و لا تسمعوا مقالة هذا و اصحابه، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الامر، فان ابوا عليكم ما سألتموه فاجلوهم عن هذه البلاد، و تولوا عليهم هذه الامور، فأنتم و الله احق بهذا الامر منهم فانه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين. انا جذيلها المحك و عذيقها المرجب. انا شبل في عرينة الأسد. اما و الله لو شئتم لنعيدنها جذعة. و الله لا يرد أحد علي ما أقول إلا حطمت أنفه بالسيف).

و هذه عصبية جاهلية و سوء قصد ظاهر. فقال له عمر: (إذاً يقتلك الله) فانتحي به الناحية الدينية إذ نسب القتل الي الله تعالي و لم يقل يقتلك الناس. و هذا اسلوب من الرد فيه التهديد و التنديد علي تلك دعوي الجاهلية منه. فقال الحباب:

(بل إياك يقتل).

و هذه مهاترة يلتجأ اليها ضعف الحجة و شدة الغضب، فتري الحباب في كل ذلك كان قلق الوضين يرسل من غير سدد، و تتضوع من فمه رائحة نفسه، و لا يعرف ان يسر حسوا في ارتغاء. فاقتحم في الميدان بجنان الفارس المدلة المدل بقوته و نفسه، و من سيفه و لسانه تنطف دعوي الجاهلية الاولي البشعة في الاسلام، تأباها عليه الصبغة الدينية المصطبغ بها المجتمع يومئذ، و هو في الدرجة الاولي متأثر بالإسلام و تعاليمه و للشعور الديني الأول في تأثر الجماعات الدينية و انفعالاتها، فما لم يستخدم هذا الشعور لا يرجي ان يحدث في الجماعة التعصب الذي يجعل الانسان يري سعادته في التضحية بنفسه و بكل عزيز فداء للمقصد الذي يوجه اليه.

فالحباب ان تولي الدفاع عن سعد و قومه نصرة لهم فهو الذي أفسد عليهم أمرهم اكثر من أي شخص آخر من حيث يظن الصلاح و بدلا من ان يقود المجتمعين للغرض الذي اجتمعوا لأجله قد خسرهم و اعطي القيادة من حيث لا يشعر لغيره الذي عرف كيف تؤكل الكتف في استمالتهم و استعمال نفوذه فيهم. و كان اول ظهور هذه الخسارة قيام ابن عمه بشير بن سعد الخزرجي، فنقض علي الخزرج ما اجمعوا عليه فقال:

(يا معشر الأنصار انا و الله لئن كنا اولي فضيلة في جهاد

المشـركين و سابقة في هذا الدين ما اردنا إلا رضـي ربنا و نبينا و الكدح لأنفسـنا، فما ينبغي لنا ان نستطيل علي الناس بذلك و لا نبتغي من الدنيا عرضا فان الله ولي المنة علينا بذلك. ألا إن محمداً من قريش و قومه أحق به و أولي.

و ايم الله لا يراني الله انازعهم هذا الأمر ابداً فاتقوا الله و لا تخالفوهم و لا تنازعوهم).

انظر الي الشعور الديني كيف أخذ بأطراف كرم هذا الرجل، متأثراً بدعوة ابي بكر و صاحبه، خارجا علي قومه بل علي نفسه، و كان بعد ذلك اول مبايع من القوم. و لا اعتقد ان ذلك كله عن نفاسة لسـعد كما رماه به الحباب لما مد يده للبيعة فناداه: (يا بشير بن سعد عققت عقاق! ما أحوجك الي ما صنعت ؟ أنفست علي ابن عمك الامارة!). فقال بشير:

(لا و الله و لكن كرهت ان انازع قوما حقاً جعله الله لهم).

بل اعتقد انه كان صادقا بعض الصدق أو كله فيما ادعاه عن نفسه فان سـير الحادثة كما وصـفناه يدل دلالة واضـحة علي تأثر الجماعة بكلام ابي بكر و انقيادها الي دعوته و لا سـيما بعـد ما صـدر من الحباب ما يبعد النفوس عن دعوة قومه. نعم! و إنما كان مبدأ ظهور ذلك التأثر في بشير بن سعد، فيصح ان نجعله ممثلاً لشعور قومه تلك الساعة.

9 المهاجرون يربحون الموقف

إن الحقيقـة هي التي وصـفناها لك. إن القوم قـد تكهربوا بدعوة المهاجرين و تهيئوا لبيعة واحد منهم بالرغم من وجود التنافس بين الحزبين كما أشـرنا اليه و صـرح به ابو بكر في خطبته التي تقـدمت في البحث (3) إذ قال: (فقـد جلس بين لحي اسد يقضـمه المهاجري و يجرحه الأنصاري) و زاد في تهيئهم هـذا منافسـة الأوس للخزرج و حسـدهم لسـعد. و طبيعي ان تنافس القريب اكثر أثراً من منافسـة البعيـد مهما كانت.

و لذلك نري ابا بكر لما سمع مقالة بشير لم يتأخر عن تقرير النتيجة من هذا النقاش، فلا بد انه علم بانقلاب الجمع تأثراً بدعوتهم كيف و هو قد هيمن عليهم و نومهم تنويماً مغناطيسـيا، فيعرف كيف سـخره و قاده فقدم للبيعة أحد الرجلين اللذين معه: عمر بن الخطاب و ابي عبيدة الجراح، و قال: (قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فأيهما شئتم فبايعوا).

و قـد جري في هـذا الكلام هنا علي نفس تلك الطريقـة التي سـلكها في خطبته المتقدمة في البحث (7) من ترفعه عن مقام المعارضـة، و تجريده من نفسه حكما للحزبين يختار لهما ما هو الصالح باجتهاده، فاختار لهم احد هذين الرجلين.

و لكن الجمهور كما قلنا ضعيف الرأي و الاختيار،

لا ـ يعرف ان يختـار و لا ـ يعرف ان يعين مـا يختار، و يبقي في مثل هـذا الحال منتظراً اشارة من سـخره و نومه التنويم المغناطيسـي أو لأي شخص آخر يفاجئه بارادة قوية حازمة، فلو ان احداً من الحاضـرين قام فبايع احداً منهما عمر أو أبا عبيدة لبويع و انتهي كل شيء. و لو ان ابا بكر عين واحـداً لمـا تأخروا عن بيعته، و لكن هـذا الترديـد بين الرجلين يظهر انه كان مقصوداً تمهيـداً لإرجاع الأمر اليه، و لعله عن تفاهم سابق و اتفاق بين الثلاثة ليتعاقبوا هذا الأمر. و لذلك تمني عمر عند الموت ان يكون ابو عبيدة حيا ليعهد اليه.

اما هما فقد أبيا عليه و قال عمر: (لا و الله لا نتولي الأمر عليك ابسط يدك نبايعك!) قال هذا القول و لم يترك فرصة تسـتغل للرد و الحجاج، فحقق القول بالعمل، و أقـدم بارادة جازمة لا تعرف التردد يتطلبها الموقف الدقيق، فذهب ليبايع ابا بكر، و لم يتمنع ابو بكر فمد يده، و لكن بشـير بن سـعد هـذا الـذي تقدمت خطبته سابق عمر بن الخطاب اليها فوضع يده بين يديهما مبايعا، كأنما اراد بذلك ان يحرز الفضـيلة في السبق أو ليبرهن علي اخلاصه للمهاجرين، بل هذا من اندفاعات الجمهور المدهشة بنتيجة انفعالهم بالمؤثرات التي تطرأ عليهم.

و هو من ابلغ الشواهد علي ما قلنا من تكهرب نفوس جمهور السقيفة بتلك المؤثرات التي استعملها ابو بكر بتلك

الحذاقـة و اللباقة، فان لبعض الألفاظ و الجمل سـلطاناً لا يضـعفه العقل و لا يؤثر فيه الدليل. الفاظ و جمل يفوه بها الخطيب خاشـعاً امام الجمهور، فلاـ تكـاد تخرج من فيه حتي تعلو الوجوه هيبتهـا و تعنو القلوب لهـا احترامـا كأن فيها قوة إلهيـة أو موجـة سـحرية، فتثير تارة في النفوس أشد الصواعق من الغضب، و تسكنها تارة إذا جاشت فتمزق اشلاءها و تقودها الي حيث يريد المتكلم راضية قانعة(1).

و يظهر ان عمر ايضا أدرك حقيقـة الموقف و كيف قـد ربحه المهاجرين فلم يبق إلا أن يصـدر أحـدهم. الحكم الفاصل في تعيين من يبايع منهم، فأقـدم علي بيعـة ابي بكر كما رأينا ه غير متردد و لا متخوف و لا مستشـير، و مـد يـده مسـرعا. و إلا فان الأمر أعظم من أن يتم بهـذه السـرعة و السهولة التي كانت: باقدام شخص واحد يعقد البيعة لشخص آخر الظاهر ظهور الشمس انه صاحبه المنحاز اليه في وقت هو احد ثلاثـة أو أربعة من الحزب المعارض لقوم في عقر دارهم معتزين بقوتهم يريدون أن يملكوا أعظم سـلطان لأعظم امة، و هو لم يأخذ رأيهم و تصديقهم علي ما أراد(2)

1- (1) راجع كتاب (روح الاجتماع) المعرب لغستاف لبون ص 113.

2- (2) علي انه قال بعـد ذلك في خلافته: (فمن بايع اميراً من غير مشورة المسـلمين فلا بيعـة له و لا بيعة للذي بايعه تغرة يقتلا) راجع كنز العمال الجزء الثالث رقم الحديث 2323.

و إنما اقـدم كأن الأمر لا يـدور إلا بينه و بين ابي بكر كأمر ثابت لا شك فيه. و هـذه مغامرة خطيرة لها ما بعدها، و لـم تكن منه إلا لأنه أدرك نضج القوم و تهيئهم لبيعة أحد المهاجرين.

و لذلك لم نجد معارضة من القوم، بل الأوس ذهبت جميعها مسـرعة للبيعة من غير تردد و لا تلكؤ يقدمها أسيد بن حضير بعد ان قالت ما قالت كما تقـدم في البحث (3). ثمّ تبعهم جميع الأنصـار ما عـدا سـعداً و من كان شديـد التعصب له كإبنه قيس و الحباب. و لا شك ان للعدوي أثرها الفعال في الجماعات فتسـري سـريان النار في الهشيم، او تيار الكهرباء في سلكه، فقد وجدنا كيف كان هلعهم في تزاحمهم علي البيعـة و تسـابقهم اليهـا، كأنمـا تفوت دونها الفرصـة، فأقبلوا من كل جانب يبايعون ابا بكر، حتي ازدحموا علي سـعد بن عبادة السـيد المطاع في الخزرج بل الأنصار كلهم، هـذا الزعيم الذي كان قبل ساعة مرشـحا للبيعة خليفة للنبي و أميراً علي جميع المسـلمين، و كادوا يطئونه فيقتلونه و هو مزمل وجع، فحمل الي داره صفر اليدين.

و هذا ألطف شيء في تناقض أفعال الجمهور و عدم ثباته و تطرفه في اعماله و آرائه و شدة نزقه، فانه لا يعرف الحلم و الصبر و لا قمع النفس عن الاسترسال في نزعاتها، و لا المحافظة علي الآداب العامة المصطلح عليها، و هو مع ذلك كثير النسيان لأحواله السابقة.

أما الحباب و لا ينبغي أن ننساه لما رأي اقبال الناس علي البيعة انتضي سيفه، فحامله عمر فضرب يده، فندر السيف، فأخذ منه. فجعل يضرب بثوبه وجوههم حتي فرغوا من البيعة، و لكن من المعلوم أنه لم يصنع شيئا و لم يستطيع رد جماح أي شخص من قومه حتي تمت البيعة مرغما، و صدق فيه و في قومه المثل المشهور (ربّ ساعٍ لقاعد). وليتني أراه في تلك الساعة كيف كان حاله فتزبد شدقاه و يتميز غيظا و يعض علي أنامله و قد ملكت حواسه سورة الغضب، و ما ذا كان يقول لقومه و لنفسه بعد ذلك الذي مضي منه من التهديد و الوعيد ثمّ ذهب هباء و خار ضعفا؟ لا شك انه لو كان من ابناء هذه المدينة الحديثة متشبعا بعاداتها، لكان هو علي مثل هذه الحال ضحية الانتحار ليتخلص من شنارها و يستر عارها.

10 - النتيجة

نستنتج من سير الحادثة ان طريقة بيعة ابي بكر لم تكن طريقة اختيار بالمعني الصحيح(1) و يحقق معني أنها كانت (فلتة) وقي الله شرها علي حد تعبير عمر بن الخطاب.

1- (1) فنصدق كلمة الاستاذ محمد فريد أبي حديد في مقاله (نظرة في نظام بيعة الخلفاء) المنشور في مجلة الرسالة المصرية العدد 10.

و قد رأينا السرعة التي جرت بالحادث لم تبق مجالا للمفكر ان يشحذ فكره و لا للمعارض ان يقيم حجته، فكانت مفاجأة في مفاجأة. مع ان العاطفة العدائية عند الأوس المهيجة من ابي بكر كان لها الأثر الفعال في تقريب النتيجة، و ساعدها بل اشعل أوارها ان المجتمعين انطبعت فيهم اوصاف الجماعة الاجتماعية، مما يذهب عنهم صحة الاختيار و الحكم.

فلا بدع إذا لم يثق الباحث المفكر باختيار جماعة السقيفة، و لا يغتر به دليلا علي صحة هذه الطريقة من البيعة في الاسلام. و قد أشرنا في الفصل الأول الي ان عمر نفسه قال عنها: (فمن دعا الي مثلها فهو الذي لا بيعة له و لا لمن بايعه).

و لا غرابة ايضا إذا لم يدافع احد عن النص علي علي بن ابي طالب، و قد اندفع المجتمعون بتيار جارف لا يقف في سبيله شيء، و نحن نعرف رأي المهيمنين علي الاجتماع في علي، و هم يبعدون ان يتم له شيء من ذلك. أفتراهم يدعون اليه في هذا المجتمع الذي اسس علي الأعراض عن النص فيه، و إذا قال بعد ذلك بعض الأنصار أو كلهم (لا نبايع إلا عليا) كما سبق فقد قلنا ان ذلك بعد خراب البصرة، فان هذا الجمهور اصبح لا يملك اختياره و تفكيره و شعوره بواجبه الديني لما قلناه من تكهربه بتيار تلك القوة السحرية

قوة الاجتماع التي تجعل اعماله اعمالاً لا شعورية، علي ان اساس الاجتماع ارتكز علي طمع الأنصار من جهة تخوفهم من جهة اخري (علي ما شرحناه فيما تقدم). و هذان لم يتركاهم يفكرون في واجبهم الديني فبعد أن افحموا و غلبوا و اندفعوا مع الغالبين، و تلك هي فطرة البشر.

و يشهد علي ما نحسه من الضعف الديني في تلك الأحكام العاجلة و القرارات الخاطفة في اجتماع السقيفة، انه مما تقرر في تلك النهزة أمران عامان:

1 ان الأنصار لا حق لهم في هذا الأمر.

2 انهم الوزراء لمن كانت له الامارة.

مع ان الأول شك فيه ابو بكر نفسه بعد ذلك إذ تمني فيما تمني لو سأل النبي عنه، و الثاني هذا المنصب المزعوم وزارة الخليفة لم يعط لأحد منهم لا في عهد ابي بكر و لا بعده، بل هذا المنصب لم يحدث لأحد إلا في عهد العباسيين.

و بهذه النتيجة التي حصلنا عليها من سير حوادث السقيفة و ملابساتها يسهل علينا ان نفسر بها الآية الكريمة (أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ ...) . فان الاجتماع كان علي كل حال انقلابا علي الأعقاب حتي لو لم نؤمن بالنص من قبل النبي صلي الله عليه و آله و سلم علي من سيكون خليفة من بعده، لأن الاجتماع كما قلنا من اصله كان افتياتاً علي المسلمين و لم

يكن مستندا الي قاعدة اسلامية أو تصريح من الرسول. و كذلك ما قرره الاجتماع لم يكن إلا قراراً خاطفا تحكمت فيه العواطف في المبدأ و المنتهي، و ليس فيه مجال الرجوع الي النص. و إلي هنا نستطيع ان نرجع الي ما قلناه في التمهيد انه كيف تفسر الآية بحوادث السقيفة و أرجو من القارئ ان يرجع من جديد الي بحث السقيفة ليأخذ بأطراف الموضوع علي ضوء هذه النتيجة.

و من نفس الحادثة نستطيع ايضا ان نؤيد النص علي الامام علي عليه السلام، لأن ما ورد فيه من تلك النصوص لو لم تكن لتعيينه خليفة و كانت لمجرد الثناء و بيان فضله و لم يكن الاجتماع لاستغلال الفرصة لمخالفة النص و كان اجتماعا طبيعيا شرعيا لو لم يكن كل ذلك لوجب أن يكون هذا الرجل الذي هو من النبي بمنزلة هارون من موسي في مقدمة المجتمعين و علي رأسهم و معه أهل بيته و لما كان ينعقد الاجتماع و لا يقرر فيه شيء من دون مشورته و موافقته و لكن كما سبق كل ذلك لم يقع. بل الحادثة من مبدأها الي منتهاها اخذت علي أن تقع علي غفلة منه و من بني هاشم الي آخر لحظة منها و اهمل شأنها و كأنهم لم يكونوا من المسلمين أو لم يكونوا من الحاضرين إلا بعد أن تم كل شيء.

ص:144

الفصل الرابع: عَلي مَع الخلفاء..

اشارة

ص:145

(1 - الافتيات علي الامام)

لا ـ يشك التأريخ ان علياً عليه السلام كما قدمنا لم يكن علي علم من اجتماع الأنصار في سقيفتهم، حتي بعد ذهاب الثلاثة من حزب المهاجرين متكتمين، و هم ابو بكر و عمر إذ ذهبا يتقاودان علي حد تعبير الطبري في تاريخه و تبعهما ابو عبيدة. بل لم يعلم الامام بما تم في السقيفة إلا بعد خروجهم الي المسجد في ضجيجهم (و في مقدمتهم عمر بن الخطاب و بيده عسيب نخل و هو محتجز يحث الناس علي البيعة)، فبلغه تكبيرهم، و هو مشغول لا يزال في جهاز النبي. و لم يخرج اليهم إلا في اليوم الثاني.

و اول شيء يبدو دليلا علي افتيات القوم عليه بالمشورة، و هم يشعرون بأنهم في مقام الخصومية له انهم لم يخبروه بحادث اجتماع الأنصار عند ما أسر عمر الي ابي بكر و هو في بيت الرسول بالخبر، و هما ايضا لم يخبرا احدا غير ابي عبيدة الذي تبعهما وحده حيث الاجتماع السري، مع ان مثل الامام اولي الناس بتدارك هذا الموقف الدقيق ان كان في اجتماع الأنصار خطر علي الاسلام أو فتنة، و الامور جارية علي ظواهرها الطبيعية بين الامام و بين هذه الجماعة. ثمّ الأغرب انهم لم يدعوه للمشاورة بل حتي للبيعة قبل أن يتم كل شيء ينتظر لبيعة ابي بكر. و لا ينتهي التساؤل عما إذا

ينبغي ان يرسلوا اليه من يخبره بالأمر علي الأقل! اما كانوا علي حسن نية معه او ثقة بموافقته لهم و رضاه ؟

نعم! لقد وجدناهم قد قضوا أمرهم بينهم، ودعوا الناس الي البيعة اشتاتا و مجتمعين، مستشعرين الكفاح و الخصومة بل الخوف امام حزب علي. و لذا انتهزوا فرصة انشغاله و انشغال اصحابه و بني هاشم بجهاز سيدهم. و يشهد لهذا قول الطبري في تأريخه: (و جاءت اسلم فبايعت فقوي بهم جانب أبي بكر و بايعه الناس)، تأمل كلمة (فقوي بهم جانب أبي بكر)، لتفهم ان هناك جانبين متخاصمين يقوي احدهما و يضعف الآخر، و ليس المراد بالجانب الآخر الأنصار لأنهم قد بايعوا في السقيفة و لم يبق إلا سعد بن عبادة و ابنه، و ليس له كبير اهتمام و قد اهملت بيعته حسب اشارة بعض ابناء عمه.

أما علي فقد قلنا انه جاءه الخبر عفواً لما سمع تكبير القوم في المسجد و هو حول النبي مشغول بجهازه. و لما بلغته حجتهم علي الأنصار لم يكتم نقدها، فقال كما في نهج البلاغة: (احتجوا بالشجرة و أضاعوا الثمرة).

2 رأيه في بيعة السقيفة

قلنا في آخر الفصل الأول انه لما ذا لم يطالب الامام

ص:147

صراحـة بالنص عليه بالخلافـة، و هنا نقول: انه مع ذلك لـم يكتم رأيه في بيعة السـقيفة، فان التأريخ لا يشك، عند من ينظر اليه نظرة فحص و تمحيص، أنه كان ناقما علي ما اسـرعوا اليه من بيعة ابي بكر، و كان يعدها غضـبا لحقه، فلم يلاق الحادث إلا بالاستغراب و الاستنكار كما يبدو من كلمته السابقة التي قرأتها أخيرا، و من كلمات كثيرة منبثة في نهج البلاغة و غيره و أهمها الخطبة الشقشـقية. و أقل ما يقال في انكاره تخلفه عن البيعة حتي ماتت فاطمة الزهراء عليها السلام.

علي ان من الظلم نقول: ان الامام تخلف عن البيعة، و هو صاحب الأمر الذي يجب أن يؤتي اليه، و إنما الحق أن نقول: إن الناس هم الذين تخلفوا عنه.

و أول اعلان له عن رأيه كان عنـد خروجه في اليوم الثاني من السـقيفة بعد البيعة العامة كما في مروج الذهب فقال لأبي بكر: (أفسدت علينا أمرنا و لـم تستشـر و لـم ترع لنا حقا). و هذا القول صرخة في وجه الاستئثار عليه، و تصريح بعدم الرضي بما تم، و ليس علي ممن يداجي أو يخاتل و لا ممن تأخـذه في الله لومة لائم. و لذلك هم كانوا يفرون من التحرش به قبل تمام البيعة خوف اعلان خصومتهم، فنري ابا بكر في جواب كلامه السابق يعترف له و يقول: (بلي! و لكن خشيت الفتنة).

و يسكت التأريخ عن ذكر جواب الامام، أ فتراه اقتنع

بكلمة ابي بكر أو أغضـي عن جوابها أو التأريخ أهمل الجواب. و لكن عليا نفسه يقول من خطبة له عن هذه الحادثة: (فلما قرعته بالحجة في الملأ الحاضرين هب كأنه لا يدري ما يجيبني به).

و لئن فرض انه سـكت هـذه المرة فانه لـم يترك الـدعوة الي نفسه و اسـتنكار حادث السـقيفة، و ان بايع بعد ذلك فلم يبايع عن طيبة خاطر و اطمئنان الي الوضع، و هو الذي يقول بالصراحة في الشقشقية: (فصبرت و في العين قذي و في الحلق شجا أري تراثي نهبا).

ثمّ التأريـخ يحـدثنا انه لـم يبايع إلا بعد أن صـرفت عنه وجوه الناس بموت فاطمة الزهراء. و كـم تذمر و تظلـم من دفعه عن حقه مثل قوله من كلام له في النهج: (فوالله ما زلت مدفوعا عن حقي مستأثرا علي منذ قبض نبيه صلي الله عليه و آله و سلم حتي يوم الناس هذا) و يشير بهذا اليوم الي عصره في خلافته.

***

هذا هو الصـريح الواضح من رأي الامام في بيعة السـقيفة و ما وقع بعدها. و يكفي النظر في الشقشـقية وحدها، غير ان التأريخ قد يحاول ان يكتـم هذه الصراحة، لأنه لا ينكر علي كل حال ان علياً مع الحق و الحق مع علي، فلا

يمكنه ان يتهمه بالحيدة عن طريق الحق إذا اعترف بهذا الرأي منه، و هو أعني التأريخ يريد ان يصحح ما وقع يوم السقيفة الذي لا يصح من دون رضي صاحب الحق و موافقته، فيركن الي المداورة.

و لكن في الحقيقة لا بد ان تتم علي نفسها، فانه جاء في صحيحي البخاري و مسلم عدا كتب التأريخ و السير ما لا يخرج عن هذا القول: (ان وجوه الناس كانت اليه و فاطمة باقية فلما ماتت انصرفت وجوه الناس عنه و خرج من بيته فبايع ابا بكر و كانت مدة بقائها بعد أبيها ستة أشهر).

و جاء ما هو أصرح من كل ذلك في جوابه لكتاب لمعاوية، إذ يتهمه معاوية بالبغي علي الخلفاء و الابطاء عنهم و كراهية أمرهم، فيقول الامام منكراً لبعض التهم و معترفا بالبعض الآخر: (فأما البغي فمعاذ الله أن يكون و أما الابطاء و الكراهية لأمرهم فلست اعتذر الي الناس في ذلك)(1).

---

3 الموقف الدقيق

يظهر للمتتبع ان الامام كان يري عطفاً علي رأيه السابق وجوب مناهضة القوم حتي يأخذ حقه منهم.

1- (1) راجع شرح النهج (409:3).

و يستشعر ذلك من سيرته معهم و من كثير من أقواله التي منها قوله في الشقشقية عن حربه لأهل الجمل و معاوية:

(أما و الذي فلق الحبة و برأ النسمة لو لا حضور الحاضر و قيام الحجة بوجود الناصر، و ما أخذ الله علي العلماء ألا يقاروا علي كظة ظالم و لا سغب مظلوم؛ لألقيت حبلها علي غاربها و لسقيت أخرها بكأس أولها).

فانظر الي موقع كلمته: (لسقيت آخرها بكأس أولها)، فانه يريد أن يقول: ان زهدي بالدنيا يدعو الي أن أترك حقي في المرة الأخيرة كما تركته في المرة الاولي، و لكن الفرق كبير بين الحالين: ففي الاولي لم تقم علي الحجة في القتال لفقدان الناصر دون هذه المرة، فلا يسعني ان اعرض عنها هذه المرة و اسقيها بالكأس الذي سقيت به اولها يوم طويت عنها كشحا و صبرت علي القذي.

و أصرح من ذلك ما كان يقوله: (لو وجدت اربعين ذوي عزم منهم لناهضت القوم) و هذا ما عده معاوية من ذنوبه، و ذلك فيما كتب اليه من قوله: (فمهما نسيت فلا أنسي قولك لأبي سفيان لما حركك و هيجك لو وجدت اربعين ذوي عزم منهم لناهضت القوم، فما يوم المسلمين منك بواحد)، و لم ينكر امير المؤمنين عليه السلام هذا القول في جوابه علي هذا الكتاب.

و في التاريخ مقتطفات تؤيد ذلك، كما في تأريخ

اليعقوبي: إن اصحابه الذين كانوا يجتمعون اليه طالبوه بمناهضة القوم و تعهدوا بالنصرة، و كأنهم ظنوا ان قد بلغوا العدد المطلوب (40 ذوي عزم) فقال لهم: اغدوا علي هذا محلقي الرءوس، و هو إنما يريد ان يريهم انهم لم يبلغوا المنزلة التي تقام بها الحجة، فلم يعد عليه إلا ثلاثة نفر.

و إذا كان هذا رأيه في المناهضة للقوم يبلغ يا سبحان الله هذه الشدة و الصرامة فما ذا تراه صانعا؟ لنتركه الآن يحدثنا هو عن نفسه و موقفه الدقيق، إذ يقول من الشقشقية: (و طفقت ارتئي بين أن أصول بيد جذاء أو اصبر علي طخية عمياء يهرم فيها الكبير و يشيب فيها الصغير و يكدح فيها مؤمن حتي يلقي ربه). ثمّ يبين لنا كيف ان يده جذاء من خطبة ثانية (نظرت فاذا ليس لي معين إلا أهل بيتي فضننت بهم علي الموت).

فهو إذن بين امرين لا ثالث لهما: اما المغامرة بما عنده من اهل بيته، و أما الرضوخ للأمر الواقع، اما الحالة الاولي ففيها خطر علي الاسلام لا- يتدارك فإنه إذا قتل هو و آل بيته ارتفع الثقل الثاني من الأرض (عترة الرسول) و افترق عن عديله القرآن الكريم و هناك الضلالة التي لا هداية معها، و قد قال النبي: (لا تضلوا ما ان تمسكتم بهما ابداً) أو (لن يفترقا حتي يردا علي الحوض) و أما الحالة الثانية فان في الصبر علي هضم حقوقه اضاعة لوصية النبي، و تعطيل لنصبه اياه اماماً و خليفة من بعده.

ص:152

فأي الأمرين هو اولي بالرعاية لحفظ بيضة الاسلام ؟

و أني لنا ان نتحكم في ترجيح أحد الأمرين، و نعرف الامام واجبه في هذا الأمر؟!

و ما بالنا نذهب بعيداً، فانا نعرف ما صنع الامام، انه استسلم للقوم و بايع كما بايع الناس بالأخير، و قد قرر الرأي الأخير بعد ان طفق يرتئي بين ان يصول بيد جذاء أو يصبر علي طخية عمياء عند ما قال: (فرأيت الصبر علي هاتا احجي) فسدل دونها حينئذ ثوباً و طوي عنها كشحاً.

علي انه لا يضيع وجه الرأي علي الناظر في هذا الأمر ليعرف كيف كان الصبر أحجي، لأنه لو نهض في وجه القوم مع قلة الناصر و حسد العرب له وترات قريش عنده، لكان المغلوب علي أمره، و عندئذ يصبح نسياً منسيا، و لربما لا يحفظه التأريخ إلا باغياً بغي علي الدين كأولئك اصحاب الردة، فقتل (بسيف الاسلام) و اضيع مع ذلك النص علي خلافته. و قد رأيناه مع بقائه حيا و انتهاء الأمر اليه بعد ذلك كيف غمط حقه و أعلن سبه و بقي الشك فيه الي يوم الناس هذا

و قد أشار الي ذلك في كلامه لعمه العباس و ابي سفيان لما طلبا بيعته، إذ قال لهما: (أفلح من نهض بجناح أو استسلم فأراح.. ثمّ قال: و مجتني الثمرة لغير وقت إيناعها كالزارع بغير أرضه).

حقا، لا ينهض في هـذا الموقف إلا من لا يبالي إلا بالحرص علي الملك و مطاولـة الناس مهما كانت النتائج علي الدين و الصالح العام، و أمير المؤمنين أحرص علي الاسـلام من ان يغرر به لأـمر يقول عنه: (انه مـاء آجن و لقمـة يغص بها آكلها). و لا يساوي عنـده نعله التي لا تسوي درهما، إلا إذا كان يقيم حقا أو يـدحض باطلا. و لـذلك، ينصـح الناس في كلامه الـذي أشـرنا اليه مع العباس و ابي سـفيان، و هما يحثانه علي قبول البيعة، فيقول: (شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة و عرجوا عن طريق المناظرة، وضعوا عن تيجان المفاخرة).

و كأنه في كلامه هـذا يحس منهما إذ دعواه لهذا الأمر الآنفة من الخضوع لأخي تيم، و (تيم) علي حد تعبير ابي سـفيان أقل حي في قريش، فهما ينظران الي لأمر من ناحيته القبليـة، و العصبيـة الجاهلية. أما فقهه هو فكما قال من كتاب له في جواب معاوية في خصوص هذا الأمر: (و مـا علي المسـلم من غضاضـة في ان يكون مظلومـا ما لم يكن شاكا في دينه)، و هو غير فقههما فان العباس مشـي اليه ابو بكر و جماعة ليلا، لما عرفوا موقفه، فأطمع في الخلافة له و لولده، بعد نقاش انتهي بالاعراض عن النزاع. و أما ابو سـفيان فقد نقل ابن ابي الحديد (30:1) و غيره ان عمر كلم ابا بكر فقال إن ابا سـفيان قد قدم و انا لا نأمن شره، فدفع له ما في يده فتركه، و كان أبو سفيان قد بعث قبل وفاة النبي علي الصدقات.

ص:154

ثمّ لنفترض ثانياً أنه ما كان ليقتل لو ناهض القوم و لكن مع ذلك فالصبر علي ترك حقه كان أحجي و أجدر لأن منازعتهم كانت لا شك تجر إلي الفتنة و تبعث علي الفرقة، و الاسلام بعد لم يتغلغل في نفوس العرب و لم يضرب جرانه في الجزيرة، و قد اشرأبّت الاعناق للانتقاض عليه.

فهو إذ وطن نفسه علي ما هو أمر من طعم العلقم كما يقول بالتنازل عن حقه، كان يخاف و يخشي، و لكن لا علي الحياة و هو هو ابن أبي طالب في شجاعته و استهانته بالحياة، الذي كان يقول: و الله لو تظاهرت العرب علي قتالي لما وليت عنها بل كان خوفه علي الدين من التصدع و علي جامعته من التفرق، فسالم إبقاءً لكلمة الاسلام و اتقاء للخلاف و الشقاق في صفوف المسلمين فيرتدوا جميعاً علي أعقابهم، و المفروض ليس عنده القوة الكافية لاظهار كلمة الحق و إقامة السلطان.

و هو يشير إلي هذا الخوف فيما يقول في هذا الصدد من خطبته في النهج: (ما شككت في الحق مذ رأيته. لم يوجس موسي عليه السلام خيفة علي نفسه. أشفق من غلبة الجهال و دول الضلال. اليوم توافقنا علي سبيل الحق و الباطل من وثق بماء لم يظمأ). فهو في هذه الكلمة يتأسي بموسي عليه السلام إذ رموه بالخيفة و لكنّ فرقاً بين الخوف علي الحياة و الخوف من غلبة الباطل: و هذا أفضل تفسير لقوله تعالي: (فأوجس في نفسه خيفة) و فيه تبرئة لنبي الله من الوهن و الشك و ما أدق

معني كلمة (من وثق بماء لم يظمأ) بعد تقديم قوله: (ما شككت في الحق مذ رأيته) و قد رأي الحق و هو ابن عشر سنين!.

و يوضح لنا ذلك جوابه المشهور لأبي سفيان لما جاءه مستفزاً علي أبي بكر و هو يقول: (فوالله لئن شئت لأملؤها خيلاً و رجلاً) و أنت تعرف ما قال له الامام أنه قال: (أنك و الله ما أردت بهذا إلا الفتنة و أنك و الله طالما بغيت للاسلام شراً لا حاجة لنا في نصيحتك) ما أعظم هذه الصرامة و الصراحة منه لمن يريد أن يبذل نفسه و قومه في ظاهر الحال ناصراً و معيناً علي خصومه و هو يشكو فقد الناصر. نعم أن الدين الذي بذل له مهجته كان عنده فوق جميع للاعتبارات، و إن استهان به غيره، و قد رأينا أبا سفيان كيف أسرع في الرجوع عن وعده و وعيده لما تركوا له ما في يده. و أمير المؤمنين قد صرح بغرضه هذا بعد ذلك في جوابه الذي أشرنا إليه عن كتاب معاوية كما في النهج و العقد الفريد إذ قال عن إبائه علي أبي سفيان: (حتي كنت أنا الذي أبيت لقرب عهد الناس بالكفر مخافة الفرقة بين أهل الاسلام).

4 سلوكه مع الخلفاء

اما و قد تركنا الامام يغضي عن حقه و يقرر بالأخير خطة

ص:156

الصبر علي ما فيها من قذي و شـجي فما ذا تراه يتخذ من خطه في سياسته و سلوكه مع الخلفاء: أ يستسلم فيسرع الي بيعتهم كسائر الناس و يعمل لهم كما يعمل باق المسلمين أم يسلك بقدر ما تسمح به الضرورة و تقتضيه المصلحة للدين ؟

قـد ابي بعض المؤرخين من القـدماء و المحدثين إلا ان يصور الامام مسالماً الي أبعد حدود المسالمة، فيسـرع الي البيعة عن طيبة خاطر و رضـي بمن نصب لها، و لكن البحث الصحيح يأبي علينا أن نسلم بهذا التسرع في النقل أو الحكم: فقد ثبت تأريخياً ان عليا لم يبايع ابا بكر إلا بعد موت فاطمة بضعة الرسول، و في تقدير ابن الأثير في تاريخه و البخاري و مسلم في صحيحهما و غيرهم انه ستة اشهر، و في كل هذه المدة هو جليس بيته لم يشترك في جماعة و لا جمعة و لا أمر و لا نهي و لم يسـمع له صوت في حروب الردة و غيرها. و اكثر من ذلك كان يطرق ابواب الأنصار و اهل السوابق ليلا حاملا معه فاطمة و الحسـنين يدعوهم الي نفسه و يذكرهم عهد رسول الله صلي الله عليه و آله، و هذا ما جعله معاوية من ذنوبه في كتابه السابق الذكر، ثمّ انه كان يقرعهم بالحجة و ينير لهم طريق المحجة ذلك قوله المتقدم:

(فلما قرعته بالحجة).

و هل يظن الظان انه كان يحاول في هذا العمل ان يتحولوا في البيعة و ان يتركوا ما ابرموه و هو الذي اسدل دونها

ثوبا و طوي عنها كشحا و رأي الصبر علي ذلك احجي و هو الذي يدعوه العباس و ابو سفيان الي البيعة فيأبي ؟ ان هذا الاباء و ذاك الصبر لا يجتمعان مع تلكم المحاولـة و الـدعوة الي نفسه ما لـم يكن يرمي الامام من وراء ذلك الي غرض أسـمي مما يظن، انه كان يقيم الحجة في عمله علي اولئك الناس و يفهمهم خطأهم فيما ارتكبوا و تنكبهم عن الحق فيما اسـرعوا و إلي ذلك يشـير فيما قال: (اللهم انت تعلم انه لـم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان و لا التماس شيء من فضول الطعام و لكن لنرد المعالـم في دينك و نظهر الصلاح في بلادك).

و يؤخذ من طيات التأريخ انه لـم تأخذه هوادة في الدعاية و الدعوة الي مبدئه اظهاراً لحقه و اقامة للحجة علي سواه، فلا ينكر التأريخ اجتماع اصحابه عنده طيلة ايام انعزاله، فيعتبره الطرف الآخر كمؤامرة يحاول ابطالها خشية توسعها، فيرسل من يفرق القوم المجتمعين فيجتمعون. و لاـ ينكر التأريـخ ايضـا تطوافه علي الأنصـار و اهل السوابق كما قـدمنا. و لا ينكر عـدم اشتراكه في جمعـة و لا جماعـة، و هو احرص علي الشعائر الدينية و الواجبات الالهية من ان يجرأ مجترئ علي اتهامه بالمسامحة فيها.

و هذه المقاطعة و ما اليها اعلان صريح برأيه فيما عليه القوم و لذا نري الخليفة ابا بكر يتذمر من موقف الامام

فعرض فيه من خطبة: (يستعينون بالضعفة و يستنصرون بالنساء كأم طحال احب اهلها اليها البغي إلا اني لو اشاء ان أقول لقلت و لو قلت لبحت. اني ساكت ما تركت) و في هذا تخوف مما يظن انه سيقع و تهديد باذاعة أمر مكتوم. ما أدري و لا أظن أحد يدري اليوم أي شيء هذا الأمر الذي يهدد الخليفة بافشائه، و الظنون تذهب و لا تقف علي شيء معين!

و زبدة المخض: انا نفهم كل ذلك ان خطة الامام في حياة فاطمة كانت المقاطعة و الدعوة الي مبدئه و ان يقعد حجزة الضنين علي تعبير فاطمة نفسها معتزاً بوجودها، و قد جاهدت معه في هذا المضمار جهادا له الأثر فيما بعد في تركيز مقام الامام في ذهنية المجتمع الاسلامي. و لا ننسي خطبتها البليغة التي يرن صداها الي اليوم.

و لذا نراه بعد وفاتها يبدل خطته، فبايع، و يبايع معه اهل بيته و اصحابه، و يدخل فيما يدخل فيه القوم. و لكن الي حد محدود بقدر ما تحكم به الضرورة الدينية للاحتفاظ بالجامعة الاسلامية.

لنسمعه يحدثنا هو عن تبديل خطته في كتابه الي اهل مصر: (فأمسكت يدي، حتي رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الاسلام يدعون الي محق دين محمد صلي الله عليه و آله،

فخشيت ان لم انصر الاسلام و اهله ان أري فيه ثلماً أو هدما تكون المصيبة به علي اعظم من فوت ولا يتكم...).

و لم تكن نصرته للاسلام و أهله إلا بسكوته عن حقه و متابعته للقوم، و نصيحته لهم في مواقع النصح، و إلا فلم يشترك معهم في طعنة رمح و لا ضربة سيف في جميع المواقف الي يوم بويع بالخلافة.

و ما ذا يظن الظان في من جاهد و جالد في سبيل الاسلام عشرين عاما، و في كل هذه المدة كان سيفه يقطر من دماء المشركين، و لم تثر حرب إلا و هو ابن بجدتها، و حامل لوائها و مقطر أبطالها و المقذوف في لهواتها؟ ما ذا يظن الظان فيه عند ما يجلس جلس البيت عن هذا الدين الذي قام بسيفه، و قد تألبت العرب عليه و اشرأبت اعناق النفاق ؟ و الجهاد فرض من فروض الاسلام، أ كان ذلك زهدا في الجهاد و تواكلا عن الواجب، أم ما ذا؟ أ هناك غير ما نقول من رأيه في المقاطعة إلا ما تدعو اليها ضرورة المحافظة علي الجامعة.

و قد يقول القائل: ان الخلفاء هم الذين لم يدعوه الي الدخول معهم في الحروب و الاشتراك في الحكم لمصلحة يرونها، و ما كان يجب عليه ان يقدم نفسه متبرعا، كما لم يدع الي ذلك جميع الهاشميين، و لم يسمع ان هاشميا اشترك قائدا في حرب أو حكم في عهد الخلفاء الثلاثة. و يشهد لذلك

المحاورة(1) بين الخليفة عمر بن الخطاب و ابن عباس حينما يدعوه الي العمل في حمص، فيقل لابن عباس:

(و في نفسي شيء لم أره منك و أعياني ذلك) ثمّ يصرح بذلك الشيء: (اني خشيت ان يأتي علي الذي هو آت و أنت في عملك فتقول: هلم الينا و لا هلم اليكم دون غيركم اني رأيت رسول الله صلي الله عليه و سلم استعمل الناس و تركهم).

فيقول ابن عباس: فلم نراه فعل ذلك ؟

فقال عمر: و الله ما أدري اضن بكم عن العمل، فأهل ذلك انتم، أم اخشي ان تبايعوا بمنزلتكم منه، فيقع العقاب و لا بد من عتاب ؟

و عندئذ يمتنع ابن عباس عن قبول العمل و يقول: ان اعمل لك و في نفسك ما فيها لم ابرح قذي في عينيك.

أ ليست هذه المحاورة شاهدة علي ان الخلفاء هم الذين كانوا يمتنعون عن استعمال بني هاشم خوف ان يستغلوا مناصبهم للدعوة الي أنفسهم ؟

و للمجيب ان يجيب، فيقول: ان امتناع الخلفاء عن استعمال علي و بني هاشم ان صح فهو دليل آخر علي سيرة الامام معهم، و استعماله خطة يخشون معها ان يأخذ و قومه ناصية الأمر ان تولوا عملا من الأعمال. علي انا لا

1- (1) راجع مروج الذهب (1:427).

نعدم شاهدا علي ان عليا هو الذي كان يمتنع عن قبول اعمالهم، فلنستمع الي الحديث الذي جري بين الخليفتين عمر و عثمان.

يشير عثمان علي عمر: (ابعث رجلا أي لحرب فارس له تجربة بالحرب و مضربها.

عمر: من هو؟

عثمان: علي بن ابي طالب!

عمر: فالقه و كلمه و ذاكره ذلك، فهل تراه مسرعا اليه ؟

(فيخرج عثمان و يلقي عليا، فيذاكره فيأبي علي ذلك و يكرهه).

تأمل استفهام عمر و شكه في قبول علي، ثمّ امتناع علي و كراهيته للأمر! و ما نستنتج من ذلك ؟

من هذا و امثاله نعرف ما ذا كان علي عليه السلام يتبع في سيرته مع القوم، و ما كان يجري عليه في معاملته معهم، حتي كان يخفت صوته في جميع الحروب و المواقف، و كأنه ليس من المسلمين أو ليس موجودا بينهم، و هو منهم في الرعيل الأول، اللهم إلا صوته إذا استشير و نبراس علمه إذا استفتي، حتي اشتهر عن عمر كلمته (لو لا علي لهلك عمر) أو (لا كنت لمعضلة ليس لها ابو الحسن).

و تتبع استشاراته و احكامه في كثير من الوقائع يخرج بنا الي موضوع آخر يحتاج الي كتاب آخر.

انتهي

29 جمادي الاولي 1368 ه

ص:163

ص:164

بسم الله الرحمن الرحيم مقدمة بقلم محمد جواد الغبان

تفرض علي الأبوة أن أذهب بين حين و آخر إلي ناحية (الشنافية) لزيارة سيدي الوالد سماحة الشيخ عبد الكاظم الغبان الذي يشغل مركز العالم الديني هناك.

و قبل بضعة أشهر سافرت إلي (الشنافية) فترامي الي سمعي من عامة أهل المدينة مديح وافر و ثناء جزيل علي مدير جديد في ناحيتهم هو الاستاذ السيد عبد الله الملاح الذي تم نقله الي تلك الناحية قريبا.

و ما كان إلا أن اجتمعت بهذا المدير الجديد و تتابعت الاجتماعات بيني و بينه حتي رأيت نفسي منجذبا اليه و متخذا منه صديقا حميما و أخا كريما لأنني وجدت فيه رجلا متمسكا بالصفات الحميدة و الأخلاق الكريمة بالاضافة الي كونه قويا في ادارته نزيها في احكامه و معاملاته.

ص:167

و ممـا لفت نظري من الأـخ الاسـتاذ الملاح أن هوايته المفضـلة هي العكوف علي العلم و الأدب و الثقافـة فهو لا يمضـي أوقات فراغه الا بالمطالعة أو البحث و النقاش، و هو في بحثه و نقاشه يمتاز بحرية الرأي و طلب الحقيقة من دون تعصب.

لقد دارت بيني و بينه عدة مباحثات و مناقشات دينية و علمية و أدبية كان في مقدمتها موضوع (الامامة) الذي هو نقطة الخلاف بين (السـنة و الشيعة)، و كنا في بحثنا و مناقشتنا في هذا الموضوع متجردين عن كل عاطفة و تعصب ذميم فوصلنا إلي نتائج حسنة جدا.

و قد أرشدت الاسـتاذ تتمة لما دار بيننا من المناقشات الي مطالعة كتاب (السـقيفة) الذي كتبه اسـتاذنا سـماحة العلامة الشـيخ محمد رضا المظفر (عميد منتدي النشر).. ذلك الكتاب القيم الذي نفدت طبعته الاولي و اعيد طبعه مرة اخري لأنه الكتاب الوحيد الذي درس موضوع الخلافة الدقيق دراسة مستفيضة علي ضوء المنطق المتجرد عن العواطف و المغالطات.

و حين رجعت الي النجف ارسـلت نسـخة من كتاب (السقيفة) الي الاستاذ الملاح، و بعد بضعة أيام وصلتني منه رسالة يسجل فيها إعجابه بالكتاب و براعة عرضه و قوة حجته مع إكباره لمؤلفه الكريم، و قد سـرد في رسالته المذكورة عدة ملاحظات اعترضـته أثناء مطالعته للسقيفة فطلب مني ان

اعرضـها علي الاسـتاذ المؤلف ليتفضل بالاجابة عنها، فما كان مني الا أن عرضت الرسالة علي اسـتاذنا العميد بعد أن اعطيته لمحة خاطفة عن صـديقي الاسـتاذ الملاـح فأبـدي الاسـتاذ المظفر اسـتعداده للجواب عن تلـك الملاحظـات و تفضـل فأفرغ نفسه علي كثرة أشـغاله و مسئولياته لكتابة كراس خاص ضمنه أجوبته عنها.

هذا و قد رأيت بملاحظات الاستاذ الملاح و أجوبة استاذنا (العميد) عنها موضوعا رائعا طريفا أهم مميزاته طلب الحقيقة و كشف الواقع عن طريق الدراسة الصـحيحة التي يوحيها العقل و المنطق السـليم، فوجدت نفسي مدفوعا الي تمثيلها لعالم الطبع و النشر بعد موافقة الطرفين طبعاً خدمة للحقيقة و عرضاً لنماذج من البحث النزيه المتجرد عن الانجراف مع العواطف، لعل اخواننا المسـلمين جميعا من سنة و شيعة يسـيرون علي منوال هـذا الكلام البريء و المنطق السـليم فيجتمع الشـمل و تتوحـد الصـفوف. و إذا كانوا يرون اجتماع الكلمـة ضـربا من المستحيل فلا أقل من أن يتركوا التطاحن الذي مزق صفوف الطرفين و أوهي قوي الإسلام الذي يتمثل بكلا الفريقين.

و ها أنا ذا الآن أنشـر في هـذا الكراس نص رسالة الاسـتاذ الملاح التي تتضـمن ملاحظاته مع نص جواب (العميد) عنها. و ما أدري عسـي الاستاذ الملاح تخطر في ذهنه ملاحظات اخري بعد ذلك. و إنني أعد القارئ الكريم بعرضها علي استاذنا العميد عند ما أتلقاها لعلنا نظفر بنشر كراسة ثانية في

ص:169

هذا الموضوع إكمالا للفائدة المتوخاة و الله تعالي من وراء القصد.

النجف الأشرف 2 رجب 1373 ه

محمد جواد الغبان

ص:170

نص رسالة الاستاذ عبد الله الملاح حول كتاب السقيفة

أخي الكريم الاستاذ محمد جواد الغبان لا حرمت اخوته تحية و شوقا

دعني أشكر لك قبل كل شيء هذه الاخوة الصادقة و حسن ظنك بي فأنا اعتقد انني لا أستحق منك كل هذا الاطراء إنما هي نفسك النبيلة تريك الناس في صورة نفسك. لوددت اني احقق ظنك في و الله المسئول ان يلهمنا الصواب و يهدينا الي أحسن الأخلاق انه لا يهدي لأحسنها إلا هو.

أشكر لك أيها الأخ الكريم هديتك الممتعة كتاب السقيفة فقد أمضيت بقراءته وقتاً سعيداً و كنت أود ان ادون لكم رأيي حوله بعد انتهائي من قراءته و لكن حال دون ذلك ذهابي الي بغداد.

كتاب السقيفة كتاب ممتع جداً يدل علي سعة علم مؤلفه الفاضل و تمكنه من الاسلوب العلمي العصري و لو التزم بما جاء في المقدمة لكان خير كتاب أخرج للناس و لكنه آثر ارضاء عقيدته فلم يلتزم بما أوجبه علي نفسه اولا من الجهاد التام، و كنت أود ان اطلع علي كتاب (رد علي السقيفة) لأطلع علي المآخذ التي أخذها علي المؤلف. و سأورد باختصار

ص:171

كل ما عن لي عنـد مطالعـة الكتاب، و لعل بعض ما أورده لا يخرج عن حـدود السؤال الـذي لا أحسن الاجابـة عنه فاذا كان عنـدك أو عند المؤلف جواب شاف له فأرجو التفضل بعدم حرماني من فائدته.

1 يري المؤلف اسـتبعاد سـكوت النبي عن أمر الخلافة و توكيل ذلك إلي اختيار الأمة. لما في ذلك من توقع حدوث الاختلاف كما حصل فعلا و أنا أسأل فأين النص الصريح إذن علي تعيين أحد بالذات ؟

ستقول دون شك: أ فليس في حديث الغدير كفاية ؟

إن حديث الغدير لم يؤمن بصـحته كل الناس من المسـلمين، و بعض من آمن بصحته فسره علي غير تفسير الشيعة مستفيدا من دلالة كلمة المولي علي معاني مختلفة، و أنا شخصياً أري تفسير كلمة المولي بغير التفسير الذي فسرته الشيعة في حديث الغدير تمحل و سخف.

و لكن في نفسـي شيء كثير من الحديث فان البخاري و مسلم لم يرويا الحديث، و في سنده من طعن فيه، و لكنني لا أهتم لذلك فان كتب الشيعة ترويه بسند صحيح و هم ليسوا أقل حرصا علي دينهم من السنة، و لكني سأطرح النقل هنا و أعتمد علي العقل فقط.

يقول القرآن: (وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوي إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْيٌ يُوحي).

و يعتقد السـنة و الشيعة ان جميع ما صح عن النبي يجب الأخذ به باعتباره وحيا من الله و لكننا نري ان النبي أمر بكتابة القرآن علما منه بأن كل ما اعتمد في حفظه علي الذاكرة اعتوره النسـيان أو التحريف بزيادة أو نقصان و لـم نسـمع انه أمر أحدا بكتابة الحديث فاذا كان الحديث وحيا من الله كالقرآن فلما ذا لـم يكن قرآنا؟ و أي فرق بين وحي الحديث و وحي القرآن ؟

إن عـدم تـدوين الحديث أدي إلي الاختلاف الذي نراه الآن فليس من حديث صح عند السـنة إلا وجد فيه الشـيعة مجالا للطعن و العكس صحيح أ فيمكن أن يبني دين موحد علي حديث يصدقه اناس و يكذبه آخرون، و لكن الفرق الاسـلامية كلها متفقة علي أن القرآن الذي بين أيـديها صورة صـحيحة للوحي المنزل علي رسول الله و لا عبرة ببعض الأقوال المنسوبة إلي اناس زعموا ان القرآن قد حذف منه كل ما كان فيه مدح لآل البيت.

اريد ان اخلص من هذه المقدمة الي القول بأن امر الخلافة و هي من الاهمية بحيث صورها مؤلف السـقيفة الفاضل لا يعقل ان يترك أمرها الي حـديث كحديث الغدير لا تكاد الصـحابة تسـمعه حتي ينساه أكثرهم و يذهب في تأويله الآخرون مذاهب مختلفه، أ فما كان ينبغي و الأمر بهذه الأهمية ان ينزل فيها قرآنا. صحيح (ان الله لا يسأل عما يفعل و هم

يسألون) و لكن منطق الحوادث يدلنا علي ان امراً كهذا لا سيما إذا أخذنا عقيدة اللطف الإلهي بنظر الاعتبار لم يكن ينبغي ان يسكت عنه القرآن و قد نزل في أشياء أقل أهمية من هذا بكثير، أما الآيات التي أوردها المؤلف (إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ) فلا أظن ان من له أقل المام باسلوب القرآن يري قصر الذين آمنوا علي علي (رض) فإن الله لم يشر الي واحد بلفظ الجمع و قد خاطب النبي بقوله (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ). و بقوله: (وَ إِنَّكَ لَعَلي خُلُقٍ عَظِيمٍ). و قال: (إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ ... الخ). ثمّ شيء آخر لا بد من الاشارة اليه و هو لو صح ان النبي جعل عليا عليه السلام نفسه حقيقة في آية المباهلة كيف جاز له تزويجه من ابنته.

2 إذا صح ان النبي (صلي الله عليه و آله) قد نص علي الائمة الاثني عشر بعد ان فقد ابنه ابراهيم و حزن عليه حزنا شديدا ترتب علي ذلك اتهام النبي بأنه إنما قام بالدعوة لحصر الملك و الخلافة في نفسه و في أحفاده من بعده و هو ما يتناقض الآية القرآنية (فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّ عَلَي اللّهِ).

3 حديث الغدير وقع بعد منصرف النبي من حجة الوداع و وفاته (صلي الله عليه و آله) في أواخر صفر أو أوائل ربيع الأول من نفس السنة فيكون بين سماع الحديث و الوفاة نحو شهرين و هي مدة قصيرة فاذا كان عدد الذين سمعوا حديث الغدير سبعين

الفا يزيدون أو ينقصون قليلا فلا بد ان يكون الأنصار الذين اجتمعوا في السقيفة من جملة من سمع الحديث و هم لم يكونوا ممن انامهم عمر مغناطيسيا بنفيه الموت عن رسول الله لأنهم ساعة الاحتضار كانوا مجتمعين في السقيفة كما يدل علي ذلك مجيء معن بن عدي و عويم بن ساعدة إلي عمر و ابي بكر في دار النبي (صلي الله عليه و آله) و لم يكن بين الأنصار و بين علي عليه السلام ترات فإذا كانت قريش لم تشأ أن تجمع لبني هاشم بين النبوة و الخلافة و إذا كان علي عليه السلام قد وتر أكثرهم فان الأنصار لم يكونوا يريدون غير رضا رسول الله فما بالهم و لم يمض علي سماعهم حديث الغدير غير ايام قليلة لا يقوم واحد منهم و قد تنازعوا أمر الخلافة و رشحوا لها مرشحيها يذكرهم بالحديث و بأن أمر الخلافة قد فرغ منها و قد عين رسول الله لها بأمر ربه عليا.

أما ما أورده المؤلف الفاضل من تطاول الأنصار للخلافة بعد تيقنهم من انصرافها عن مستحقها علي عليه السلام لما يعلمون من حسد العرب له و قريش خاصة فلا يمكن ان يقبله العقل لأن استحالة نصب علي للخلافة للأسباب المذكورة إذا كانت لم تغب عن فطنة الأنصار فقد كان الأولي ان لا تغيب عن فطنة رسول الله و هو المؤيد بالوحي فلا يأمر امته بأمر يعلم سلفا انهم لا يطيعون فيه فيعرضهم بذلك الي غضب الله و تذهب جهوده طيلة حياته في هدايتهم سدي.

أما قول أحد الأنصار: (لا نبايع إلا عليا) فلا يخرج عن كونه ترشيحا لعلي من قبل أحد المسلمين و لا ينكر أحد أهلية علي عليه السلام لهذا الترشيح إذ ان الرجل لم يحتج بحديث الغدير أو آية قرآنية دالة علي وجوب نصب علي.

4 استدل المؤلف الفاضل بتأمير اسامة بن زيد و تخلف وجوه المهاجرين و فيهم ابو بكر و عمر و أبو عبيدة عن اللحاق بجيشه علي الرغم من تشديد النبي عليهم في الخروج علي رغبة الرسول في إبعاد من يطمع في الخلافة عن المدينة و في تهيئة المسلمين لقبول (قاعدة الكفاية).

إن رسول الله (صلي الله عليه و آله) لم تكن تأخذه في الحق لومة لائم و هذا التدبير أشبه بتدبير الضعفاء منه بتدبير الأنبياء فمن كان يدري النبي و قد تمت البيعة لعلي في غياب جيش اسامة و وجوه المهاجرين و الأنصار ان القائد و جيشه و قد علموا بوفاة النبي و بالغاية التي ارسلوا من أجلها في ذلك الظرف الحرج و بنفاذ المؤامرة في تعيين علي للخلافة، من كان يدريه انهم لا يولون الخلافة من يريدون و ليس في عنقهم بيعة لأحد ثمّ يحتلون المدينة بالقوة و يعود التدبير الذي ظنه المؤلف الفاضل حكيما شرا علي المسلمين جميعاً فان من يخالف أمر النبي و هو في المدينة لا يعجزه ان يخالفه و هو في جيش يؤيده في رأيه.

إن حياة الرسول (صلي الله عليه و آله) كلها تدل علي أنه لم يكن يرهب القوة في سبيل نشر الدعوة و تبليغ أوامر الله فقد كان في مكة

وحيدا و في قريش أمثال عمر و أبي لهب و أبي جهل فلم يمنعه ذلك من تسفيه أحلامهم و الكفر بآلهتهم و فعل كل ما من شأنه استجلاب غضبهم فاذا كان الله قد أمره بقوله: (يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ) بتعيين علي للخلافة فلا عمر و لا غيره كان يمكن ان يحول بين رسول الله و تنفيذ أمر الله و ما كان يمكن أن يترك النبي تنفيذ هذا الأمر الذي فيه صلاح الدين و بقاؤه إلي أحاديث تحمل معاني مختلفة و تدابير يذهب في تأويلها كل واحد مذهبا فأمر الخلافة كما تعتقدون من اسس الدين فكان يجب و قد علم النبي بدنو أجله و علم كذلك لما ينتظر امته من فتن كقطع الليل المظلم و رأي مواقع الفتن خلال بيوت المدينة كمواقع القطر يجب و قد علم كل ذلك أن يأخذ البيعة لعلي في حياته و يتخذ من التدابير ما يحول بين امته و بين الفتن و هو قد بعث رحمة للعالمين و إلا فليس نبي اضيع جهدا منه فقد اذهب حياته في هدي امة ما لبثت ان أخذت طريقها من بعده الي النار.

5 حديث (هلموا أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده ابدا). لا شك في وضعه أبدا علي الرغم من رواية ائمة الحديث له إذ لا يخلو أن يكون ما أراد النبي كتابته حديثا أو قرآنا و قد ظل النبي ثلاثاً و عشرين سنة يتحدث و يوحي اليه بالقرآن فلم نره أمر بكتابة شيء من الحديث أما القرآن فلم يكن النبي يقول (هلموا أكتب لكم) بل كان يخبرهم بنزول

الوحي عليه و يأمر كتبة الوحي بتدوين ما نزل عليه فاذا كان ما أراد يكتبه قرآناً فلما ذا لم يدع كتبة الوحي ليضيفوه الي القرآن أو لما ذا لم يتله علي الحاضرين علي انه قرآن كما كان يفعل فيحفظه عنه الصحابة كما كانوا يحفظون عنه القرآن فلا يتأتي لأحد الشك فيه و لم يكن لعمر حق منع الوحي من النزول و لم ينكر أحد جواز نزول الوحي علي النبي في مرضه. أما إذا كان حديثا فمتي يا تري أمر النبي بكتابة الحديث و ما الحاجة الي كتابة هذا الكتاب إذا كان كل ما فيه هو التأكيد علي امامة علي عليه السلام ؟ أ لم يسبق أن نص النبي علي امامته يوم الغدير و من نسي حديث الغدير أو أنكره علي قرب العهد به فهو لما في الكتاب المزمع كتابته أشد نسيانا و نكرانا.

ثمّ من هو عمر هذا الذي يأمر و ينهي و لا يستطيع أحد مخالفته حتي رسول الله يمنعه عمر من أن يرشد المسلمين إلي أهم أمر من أمور الدين بعد التوحيد.

لقد كان عند رسول الله (صلي الله عليه و آله) علي و عبد الله بن العباس و غيرهما من وجوه بني هاشم و لم يزد عمر علي أن رأي رأيا حين قال: (إن الرجل قد غلبه الوجع حسبنا كتاب الله). فلو كان الأمر من الأهمية بحيث كان ابن عباس يبكي حتي يبل الحصباء كلما ذكر ذلك لكان وجب أن يأمر رسول الله باخراج عمر من عنده و يصر علي املاء ما أراد املاءه بمحضر ممن يثق بأمانتهم و لو كان الأمر متعلقا بأمر جوهري من

امور الـدين لمـا جاز الله أن يعـدل عن تبيانه لمجرد اعتراض عمر و إلا لترتب علي ذلك ان النبي (صـلي الله عليه و آله) كتم كثيرا مما كان يريد تبليغه خشية عمر و غيره و لا أظن أن مؤمنا يقول بذلك.

6 إن ما نسب الي الامام علي عليه السـلام بعد تمام البيعة لأبي بكر يدل دلالة صريحة علي عدم ثبوت حديث الغدير آنذاك فان قول الامام: (احتجوا بالشـجرة و اضاعوا الثمرة). و قوله لأبي بكر: (أفسـدت علينا أمرنا و لـم تستشـر و لـم ترع لنا حقا) لا يدل إلا علي انه كان يري نفسـه أحق بالخلافـة من أبي بكر و ليس ذلك بعجيب، فعلي من عرفه المسـلمون ربيب رسول الله و زوج الزهراء و أبو الحسـنين و أتقي الناس لله فلا غرو إذا رأي نفسه أحق بالخلافـة من غيره و لكن اعتقاد الاحقيـة في الخلافة شـيء وعد اسـتخلاف غيره اغتصاباً لحقه و مروقاً من الدين شيء آخر فاننا لا زلنا نري ترأس المفضول علي الأفضل في جميع الأزمان و السلطة كالرزق حظوظ و حتي في أيامنا ليس انتخاب نائب عن منطقة علي فرض حرية الانتخاب دليلا علي ان المنتخب هو خير أهل المنطقة.

ثمّ ما معني انصـراف وجوه الناس عنه بعد موت الزهراء عليها السـلام فاذا كان قد اجتمع اليه قبل موت الزهراء إنما اجتمع لأنه آمن بحديث الغدير و اعتقد ان البيعة لغيره ضلال لما جاز أن يتغير بموت الزهراء و إلا لثبت أن اجتماعه

إلي علي عليه السلام لم يكن من أجله هو و لا- ايمانا بوجوب امامته بل اكراما للزهراء فلما دعاها ربها الي جواره انتفي السبب الذي كان يربطه بعلي.

ثمّ انظر رحمك الله إلي قول الامام: (فنظرت فاذا ليس لي معين إلا أهل بيتي فضننت بهم علي الموت). كيف يعقل ان امة قال الله فيها (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) تعلم من أمر دينها ان عليا أمامها لا يجوز العدل عنه إلي غيره و لا يتم الايمان إلا بإمامته لا يبقي فيهم من ينهي عن المنكر و أي منكر أعظم من مخالفة صريح أمر النبي و العدول بالخلافة الي غير مستحقها حتي لم يبق منهم من يؤيد عليا غير اهل بيته وليتني اعلم فيم باع كل هؤلاء الذين رضي الله عنهم و رضوا عنه مرارا و تكرارا دينهم، أمن أجل سواد عيني أبي بكر و عمر فقط أو يكون بغض علي قد بلغ بهم حدا هوّن عليهم دخول النار؟

7 أ لا- تري تناقضا بين قولي الامام: (لو وجدت أربعين ذوي عزم منهم لناهضت القوم)، و بين قوله: (فأمسكت يدي حتي رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الاسلام يدعون الي محق دين محمد فخشيت ان لم أنصر الاسلام و أهله ان اري فيه ثلما أو هدما تكون المصيبة به علي أعظم من فوت و لا يتكلم).

فهو عليه السلام يود مرّة لو يجد أربعين ذوي عزم

لينـاهض بهم القوم و مرة يري وجوب نصـرهم و يحشـرهم مع أهل الاسـلام، أو تراه لو وجـد أربعين ذوي عزم ثمّ ناهض بهم القوم أما كان ذلك هدما للاسـلام أو ثلما له، إذ من كان يضـمن النصر له فالأمة مجمعة علي ان جيش يزيد كان مبطلا و كان جيش الحسين محقا و مع ذلك جاء الباطل و زهق الحق. و إذا صـح أن مالكا بن نويرة قـد رفض بيعـة أبي بكر لأنه لم يري البيعـة إلا لعلي أما تكون الحجـة قد قامت بوجود الناصر فلا شك ان مالكا كان من ذوي العزم الذين كان الامام يود وجودهم.

ثمّ كيف يتفق قوله: (فخشـيت إن لـم أنصر الاسلام و أهله أن أري فيه ثلما أو هدما)، مع ما ذهب اليه المؤلف الفاضل من تقاعسه عن نصرة الخلفاء و عدم التعاون معهم إلا بمقدار، فان كل معاونة باليد او باللسان نصر للاسلام و أهله و أي تباطؤ عن ذلك ثلم له.

فلو علم الامام عليه السلام ان الاسلام يعزّ بالعمل الفلاني أو القول الفلاني ثمّ احجم عن الفعل أو القول لكان خاذلا للاسلام و لأهله.

و لم أر في عيوب الناس عيبا كعيب القادرين علي التمام

لذلك فأنا أشك في صحة نسبة الأقوال المذكورة للامام فأبو الحسن أجل في نفسي من ذلك ليس هو دون خالد بن الوليد حين

قـال و قـد عزله عمر عن امرة الجيش: (لم أكن احـارب من أجـل عمر) فلم يكن الاسـلام ملكـا لأبي بكر و عمر أو غيرهما حتي يتباطأ أبو الحسن عن نصرتهما.

أمـا عـدم ورود ذكره في الحروب التي جرت علي عهـد الخليفتين الأـولين فلا يـدل ذلك علي عـدم تعاونه معهما تعاونا صادقا تاما في كل ناحيـة من نواحي العمل و إلا فأين الحروب التي اشترك فيها عمر و عثمان و طلحـة و الزبير في زمن أبي بكر و هل يـدل عدم ذكر اسـمائهم علي عدم معاونتهم له معاونة صادقة.

و بعد فهذه ملاحظات عابرة أحببت أن ادونها تزجية للوقت و قد يكون لها أجوبة مقنعة أنا أجهلها.

و أرجو أن تتهيأ لي فرصة الاجتماع بالمؤلف الفاضل الذي أرجو أن تبلغه اعجابي و تحياتي فنتوسع فيما اجملته هنا.

و اسلم لمحبك

عبد الله الملاح

الشنافية 3 ربيع الثاني 1373

ص:182

نص رسالة الشيخ المظفر رداً علي رسالة الاستاذ الملاح إلي حضرة الأخ الفاضل عبد الله الملاح المحترم

اشارة

اهدي تحياتي العاطرة

اطلعني الأخ قرة العين (الغبان) علي رسالتكم اليه المؤرخة 3 ربيع الثاني 1373 فقرأت فيها الأدب الجم و التواضع المستحب و الرغبة في الركون إلي الانصاف في القول. و هذا ما كنت اتوقعه بعد ان كان قد عرفك إلي (الجواد) من قبل.

و لأجل ان لا تفوتني فرصة التعرف اليك فضلت أن احرر بنفسي الجواب عن رسالتك و سامحني إذا تأخرت اياما اقتضتها طبيعة أشغالنا هذه الأيام.

و قبل كل حديث احببت أن أذكر للأخ ان كل بحث و سؤال يمكن ان يعقب و يجاب عنه إذا استعمل الاسلوب الخطابي بمهارة، عند ما تكون العاطفة تأخذ أثرها في الجدل، غير اني ارجو من الله تعالي أن يعصمني و يعصمك من ان تطلع رأسها خلال هذه الأبحاث التي يجب ان يتبع فيها الحق للحق.

و علي ذكر العاطفة فانك رعاك الله بعد ما تفضلت من الثناء العاطر علي كتاب السقيفة و صاحبه بما يعبر عن سمو نفسك

و اخلاقك قلت: (و لكنه آثر ارضاء عقيدته فلم يلتزم بما أوجبه علي نفسه اولا من الحياد التام). صحيح إني لم يظهر علي بحثي الأخير الحياد التام بل و لا الحياد الناقص، و يجب ان اعترف بذلك، و لكن ما حيلتي إذا كان منطق البحث هو الذي ساقني الي ذلك. فلم أشأ أن اغالط القارئ أو اخادعه فيما توصلت اليه من رأي. و لو كان البحث قد ساقني الي الانحراف عن هذا الطريق لما عدوته. و حينئذ اتبع مسلكا آخر في اسلوب التأليف أو نشره. و الله المطلع. علي السرائر و هو الشاهد إذا كان ما أمليته بدافع العاطفة و لو بنحو لا شعوري. و لا ابرئ نفسي كما قلت في مقدمة السقيفة إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما عصم الله.

و لا اطيل في المقدمة، فأقول ما عندي باختصار في الأبحاث التي أثرتها

البحث الأول

1 انك شككت في صحة حديث الغدير، لأن البخاري و مسلماً لم يروياه في كتابيهما. و إني لملتجئ أن اصارحك انه لا يضر هذا الحديث المستفيض بل المتواتر انهما لم يروياه بشخصهما، و لا سيما بعد أن استدركه عليهما الحاكم في المستدرك (109:3) و (381:4) و اكثر من ذلك صححه علي شرطهما و كذلك في كنز العمال (390:6).

ثمّ هل تدري يا أخي كم ترك البخاري و مسلم من احاديث

صحيحة علي شرطهما استدركت عليهما؟ و يكفي ان تراجع مستدرك الحاكم. و الله اعلم لما ذا تركا هذا الحديث و نحوه! و أرجو الا تذهب بك الثقة بصحيحي البخاري و مسلم هذا المذهب. حتي تجعل عدم روايتهما لحديث سببا في الطعن بذلك الحديث. فقد رابني منهما ما يريب كل منصف طالب للحق، فانهما لم يرويا أبدا و لا حديثا واحدا عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، و لئن لم يكن اماما فعلي الأقل هو أوثق و أجل و أعلم فقهاء عصره ؟ بل لم يرويا عن أبنائه الأئمة كلهم. و ما أقل ما رواياه عن آبائه حتي عن علي أمير المؤمنين عليه السلام و هو من تعرف.

هذا كله في وقت قد اكثرا من الرواية عن جماعة كثيرة هم محل الريب بل الطعن فضلاً عن المجهولين. و لو وسع الوقت و هذه الرسالة العابرة لذكرت لك العشرات من هؤلاء الرواة. و لا محيص من أن أذكر لك جماعة منهم علي سبيل المثال لتعرف اني علي حق فيما قلت و لك علي أن لا أنقل إلا من علماء و رجال من أهل السنة لتطمئن إلي قولهم:

فمن هؤلاء الرواة (احمد بن عيسي المصري) فقد ذكر ابن حجر في تهذيب التهذيب و الذهبي في ميزان الاعتدال: ان ابن معين حلف عن احمد هذا انه كذاب. و نقل في التهذيب عن أبي زرعة انه انكر علي مسلم روايته عن احمد هذا في الصحيح قال: (هؤلاء قوم يعني مسلما و نحوه أرادوا التقدم قبل أوانه فعملوا شيئا يتشرفون به) و قال: (يروي يعني مسلما عن احمد في الصحيح ما رأيت أهل مصر يشكون في انه...) و أشار إلي لسانه يعني انه يقول الكذب.

و (منهم) اسـماعيل بن عبد الله بن اويس، فقد نقل في هذين الكتابين المتقدمين اعني التهذيب و الميزان: (ان ابن معين قال عنه: لا يساوي فلسين. و قال ايضا: هو و أبوه يسرقان الحديث) و نقلا غير هذا من الطعون الشديدة فيه.

و (منهم) عبـد الله بن صالح المصـري طعن فيه في التهذيب و الميزان نقلا عن ثقاة العلماء بأنه يكذب و ليس بشـيء و ليس بثقة، و قال في الميزان: (روي عنه البخاري في الصحيح و لكنه يدلسه فيقول عبد الله و لا ينسبه) فانظر و اعجب.

و (منهم) عمران بن حطـان السدوسـي الخـارجي المعروف، و قـد روي عنه البخاري و قـد أكثر علماء الرجال من الطعن فيه، و هو المادح لابن ملجم بقوله المشهور:

يا ضربة من تقي ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

و (منهم) عنبسـة بن خالد الذي كان علي خراج مصـر و كان يعلق النساء بالثدي، فقال عنه يحيي بن كثير كما في التهذيب و الميزان: (إنما يحدث عنه مجنون أو أحمق لم يكن موضعا للكتابة عنه).

و (منهم) محمـد بن سـعيد الكـذاب المشـهور الذي صـلبه أبو جعفر علي الزندقة قال في الميزان: (روي عنه ابن عجلان و الثوري و مروان الفزاري و ابو معاوية و المحاربي و آخرون، و قد غيروا اسـمه علي وجوه ستراً له و تدليساً لضعفه) إلي أن قال أحد العلماء: (قلبوا اسمه علي مائة

اسم و زيادة قد جمعها في كتاب) ثمّ قال الميزان: (قد اخرج عنه البخاري في مواضع و ظنه جماعة).

و (منهم) هشام بن عمار خطيب دمشق و محدثها و عالمها قيل عنه: انه حدث بأربعمائة حديث لا أصل لها، و قيل عنه غير ذلك.

و منهم... و منهم... و ما أدري ما ذا احصي لك من رواة الصحيحين علي هذه الشاكلة. قيل لمسلم كما في التهذيب و الميزان بترجمة سويد بن سعيد الهروي: (كيف استجزت الرواية عن سويد)؟ فقال: (و من أين آتي بنسخة حفص بن ميسرة!). بالله عليك أ يصلح هذا عذرا في الرواية عن الضعفاء ممن اشترط علي نفسه انه لا يروي إلا عن ثقة مأمون، و عند جعفر بن محمد الصادق و ابنائه و آبائه من العلم و الحديث ما طبق الخافقين و ما يغنيه عن امثال سويد و حفص ؟ أ فلا يساوي أهل البيت عنده امثال أولئكم الضعفاء المطعون في صدقهم ؟. بالله عليك أ يأخذ الانسان المؤمن الموقن دينه من هؤلاء الرواة و أمثالهم و يوثقهم ثمّ يترك آل البيت! أي عذر يتخذه الانسان يلاقي به ربه يوم الحساب إذا كان ممن يعتقد بالله و بيوم الجزاء و يريد مخلصاً أن يخلص إلي الحق الصريح إلا اذا أراد أن يخادع نفسه أو يداهن في دينه ؟

2 و أما قولك: (ان في سند الحديث من طعن فيه) فأظن يكفينا مراجعة الجزء الأول من كتاب الغدير لنعرف ان الطعن مهلهل لا سيما بعد أن نعرف ان الحديث ليس له سند واحد يبقي مجال معه للطعن، بل هو مستفيض إن لم يكن متواتراً، علي أنه قد روي بسند صحيح علي

شرط الشيخين مسلم و البخاري كما نقلت لك عن مستدرك الحاكم و كنز العمال.

3 و أما حديثكم عن تدوين الحديث عامة كالقرآن، فان صريح القول فيه عندي الذي ادين به ربي و لا اغالط نفسي انه ثبت من طرق الطرفين الصحيحة(1) التي لا ريب فيها ان نبينا الأكرم صلي الله عليه و آله و سلم قال: (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله و عترتي أهل بيتي ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً. ألا و إنهما لن يفترقا حتي يردا عليَّ الحوض).

فقد قرن الهداية (ابدا) بالتمسك بهما معاً لا بالتمسك بواحد منهما فكل حديث لا يرجع الي الثقل الثاني لا أجد مجالا للتمسك به إلا إذا كنت لا أفهم الكلام العربي المبين أو أغالط نفسي.

دقق النظر يا أخي في هذا الحديث الجليل تجد ما يدهشك في مبناه و معناه، فما أبعد المرمي في قوله: (لن تضلوا بعدي ابدا) و لكن بشرط إذا تمسكنا بهما (بهما) لا بواحد منهما فقط. و ما أوضح المعني في قوله: (لن يفترقا) فمن فرق بينهما أ يجد الهداية يا تري ؟

و علي هذا نستطيع أن نتنبه لما ذا لم يأمر (صلي الله عليه و آله) بتدوين الحديث كالقرآن، فقد كفاه انه (ترك) لنا الثقل الثاني الذي هو عدل القرآن

1- (1) و مسلم قد رواه في صحيحة في فضائل علي من عدة طرق إذا كنت لا تصدق إلا بمسلم و البخاري. أما البخاري فلم يروه و لكن الحاكم استدركه عليه (109:3).

الكريم حسب تعبيره و أمر بالتمسك به مقروناً بالتمسك بالثقل الأول (القرآن)، فهو الذي يكفل لنا دين النبي و قوانينه من وقوع الضلال فيها أبدا (أبدا) ما إن تمسكنا به مع القرآن، و هو الذي يبين لنا كل ما أجمل في القرآن و ما نزل من أحكام و ما جاء من قوانين لا (الحديث).

و لا يبقي بعـد هـذا مجال لمن قال أو يقول: (حسـبنا كتاب الله) فانه لو كان (حسـبنا) و فيه الكفاية لما قرنه النبي بعدله الثقل الثاني. أ ليس كذلك يا قرة عيني ؟

و اسـتطيع ان اخلص من هذا الكلام الي موافقتك (موافقتك أنت) انه لا يصح الاعتماد علي (الحديث) لانه ليس بعدل للقرآن و إلا لو كان الحـديث المعمول به عنـد الناس طريقا الي اثبات الوحي الإلهي لكان النبي يأمر كما قلت بتدوينه كما أمر بتدوين القرآن. بل ازيدك بأنه لم يقرن (صـلي الله عليه و آله) الحديث بالقرآن و لـم تأت بذلك رواية معتبرة و لا آية، بل اكثر من ذلك قد اخبر عن كثرة الكذابين عليه بعده و حذرنا منهم، و لـم يرو عنه انه شجع علي الحديث عنه.

و هنا اعيـد كلامك السديـد فأقول معك: (أ فيمكن ان يبني دين موحد علي حديث يصدقه اناس و يكذبه آخرون). إذن فليسـقط (الحديث) من اعتبارنا جملـة، و لكنا إنما نسـتدل به لنتخـذه حجـة علي من يراه حجة عنده من باب الزام الخصم بما يعترف به، فان تنازل الخصم عن حجية الحديث و انكره جملة، قلنا له: بما ذا تثبت تفاصيل الاحتكام و خصوصياتها فان القرآن فيه المجمل و المبين و المتشابه و المحكم و العام و الخاص و الناسخ و المنسوخ و ليس فيه تفاصيل الأحكام

و خصوصـياتها، فهذه الصـلاة مثلا من أين تعرف أوقاتها و فرائضـها و ركعاتها و أجزائها و شـرائطها و مقدماتها و ما يتصل بها من أحكام لا تحصي ؟

فهل ترجع إلي اعتبار الحديث مرة اخري ؟

أم تلتجئ عندئذ إلي الاعتراف بالثقل الثاني الذي أرجعنا اليه النبي (صلي الله عليه و آله) مع القرآن.

أم ما ذا؟

4 قولك سدد الله قولك: (لا يعقل أن يترك أمرها أي الخلافة إلي حديث كحديث الغدير)، فيا قرة العين ليس الأمر منحصـراً بحديث الغدير حتي يتم استغرابك فكم هي الأحاديث و الآيات كما قرأت بعضها في السقيفة و هي يؤيد بعضها بعضاً و يفسر بعضها بعضاً إذا كان الواحد منها لا يكفيك.

أما وصـفك لحديث الغدير بأنه (لا تكاد الصـحابة تسمعه حتي ينساه أكثرهم و يذهب في تأويله الآخرون مذاهب مختلفة) فاني أجلك من هذا الكلام فانه ما علي النبي من ضـير أن تنسي حديثه الصحابة أو تتأوله، بل ترك أمر الخلافة إلي الصريح الفصيح من الكلام و بلغهم و إذا كانوا نسوه فالعيب فيهم لا في الحديث، علي أنا لا بد أن نقول: انهم تناسوه لا نسوه، و من أين علمنا بأنهم نسوه.

و أما الذين ذهبوا المذاهب المختلفة في تأويله فاولئك قوم من المتأخرين و ليس هم الصحابة كما يشعر به قولك و ذلك لما ضاقوا

ذرعا في الطعن في سنده فاضطروا لتأويله بالتأويلات التي تعرفها.

5 و أما آية (إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ ...) فصحيح ما قلت فيها علي ما اعتقد انه لم يعهد التعبير في الكتاب العزيز عن المفرد بالجمع. و ازيدك انه لو كان المراد التعبير بالجمع عن المفرد لقال (الذين أقاموا... و آتوا...). و التعبير المضارع (يُقِيمُونَ ... وَ يُؤْتُونَ ..) دليل علي أن المقصود بها قاعـدة كلية. و بتعبير منطقي تعرفه إذا كنت درست علم المنطق ان هذه حقيقة معناها ان كل من فرض فيه انه وقع منه هذا العمل أو يقع فهو ولي للمؤمنين ولايـة كولايـة الله و رسوله، لا قضـية شخصـية مشار بها إلي شـخص أو أشـخاص مخصوصـين موجودين في الخارج، و إلا لوجب ان يقول بصيغة الماضي أقاموا و آتوا.

و عليه فالمقصود بالآية الكريمة ان كل مؤمن يقيم الصـلاة و يؤتي الزكاة و هو في حال ركوعه فهو له الولاية العامة التي كولاية الله و رسوله. و علي هذا تكون الآية كبري كلية لا يتألف منها وحدها القياس المنطقي و لا تنتج شـيئا إلا إذا عرفنا الصغري لها، و لا يمكن الاستبدال بها وحدها مجردة بدون ضم الصغري لها، و ليس منطوقها إلا كمنطوق القوانين العامة مثل ان يقول القانون (كل من يحمل الشهادة الحقوقية له الحق أن يعين حاكما) فإن هذا القانون لا ينفعنا في معرفة الأشـخاص الذين يحملون الشـهادة بل لا بد من الخارج ان نعرفهم بأشخاصـهم لنعطي لهم هذا الحق.

و بهذه المقدمة نخلص إلي معرفة وجه الاستدلال بالآية علي ولاية

علي، و ذلـك بضـميمة الصـغري أي بضـميمة معرفـة نزولهـا، و قـد ثبت انهـا نزلت في علي عنـد ما تصـدق بخاتمه و هو في حال ركوعه، فتشخصت هذه القاعدة الكلية فيه باعتبار انها نزلت فيه. و لـم يعهد من غيره من الصحابة من آتي الزكاة و هو راكع لا قبله و لا بعده، فانحصر هذا الكلي في فرد واحد بحكم نزول الآية فيه.

و أما الحكمـة في التعبير بهـذه القاعدة الكلية فلبيان ان علياً بالاسـتحقاق نال هذه المنزلة من الولاية لصدور هذا العمل منه الذي يعطي له هذا الحق، و المفروض انه لـم يقع من غيره فتنحصر فيه هذه الولاية من دون باقي الصحابة.

6 أما آيـة (المباهلـة) فأظن ان ما ذكرته عنها سـتتراجع عنه عند ما تعيد التأمل فيه فإنه قول غريب منك مع ذكائك و فطنتك، لأنه واضح ليس المقصود من انه نفسه انه هو علي وجه تبطل الاثنينية حتي يترتب عليه انه لا يجوز ان يتزوج علي ببنت محمد (صلي الله عليه و آله) باعتبار انها تكون ابنته ايضا، فان هذا لا يتوهمه عاقل و لا يتوقف عليه الاسـتدلال، فان محمداً محمد و علياً علي هما شـخصان اثنان احدهما ابن عم الآخر و أحدهما ولد قبل الآخر و مات قبله، و لكل منهما مميزاته الشخصـية التي تختلف عن مميزات شخصية الآخر، بل المقصود انه نفسه تنزيلاـ أي انه كنفسه و ذلـك مبالغـة في تقاربهمـا و اتحادهمـا في كثير من الأحكام المنزلـة. و ذلك يشـبه قول الشاعر في مبالغته عن اتحاده مع حبيبه.

أنا من أهوي و من أهوي أنا نحن روحان حللنا بدنا

فاذا أبصرتني أبصرته و إذا أبصرته أبصرتنا

في البحث الثاني

قلت: (إذا صح أن النبي (صلي الله عليه و آله) قد نص علي الأئمة الاثني عشر بعد ان فقد ابنه ابراهيم) لا يا أخي لم يدع أحد أن النص علي الأئمة كان بعد فقد ابراهيم و لم يصح فيه حديث، فمن أين جئت بهذا. و لا بأس أن ألفت نظرك إلي ان هناك آية قرآنية اخري نظير التي ذكرتها و هي قوله تعالي: (قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبي) فما ذا تقول فيها(1)؟

و هلا تدري أن النبي لما نزلت هذه الآية (وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) جمع عشيرته و استنصرهم و جعل لناصره ان يكون اخاه و وصيه و وارثه و خليفته من بعده و كان علي صبيا فأجابه دونهم فقال في حقه: (إن هذا أخي و وصيي و خليفتي من بعدي فاسمعوا له و اطيعوا) فخرجوا يتضاحكون من تأميره هذا الغلام علي شيوخ قومه و فيهم

1- (1) و ما ذكرت انها آية فلا وجود لها بنصها، و إنما بمضمونها آيات نزلت في نوح و هود و صالح و شعيب و لوط عليهم السلام. و النازلة علي لسان نبينا إنما هي آية القربي و آية اخري في سبأ 47 (قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّ عَلَي اللّهِ) و هما يفسر احداهما الاخري، و يدلان علي انه (صلي الله عليه و آله) سأل اجرا هو المودة في القربي، و لكنه للمسلمين أي نفعه لهم.

ابوه. بالله عليك كم سبقت هـذه الواقعـة في الزمن مولـد ابراهيم. و تأمل في صبي لـم يبلغ الحلم يقال له هذا القول من نبي لا يقول إلا عن وحي. أ هذا جد أم هزل ؟. تأمل في هذا و حكم وجدانك و اعرضه علي انصافك و أوله ما شـئت أن تأوله فانك لا محالة ستجد هذا الصبي أكبر من أن يقاس إلي الناس و قـد أمر من يومه ذاك في مبـدأ البعثة، ثمّ فكر في قول من يقول انه لا قيمة لإسـلامه يومئذ و هو لـم يبلغ الحلم كم يبلغ من درجة الانصاف و قول العدل و قوة الحجة.

في البحث الثالث

1 ذكرت ان الأنصار ساعة الاحتضار كانوا مجتمعين في السـقيفة و جعلت دليلك مجيء معن و عويم إلي دار النبي لاخبار أبي بكر و عمر. و لكن الدعوي منك غريبة لا شاهد لها من التأريخ، و الدليل أغرب، لأنه في ساعة الاحتضار كان أبو بكر في السنح و ما جاء الي المدينة إلا بعد ان بلغه وفاة النبي فجاء إلي دار النبي فكشف عن وجهه صلي الله عليه و آله و سلم علي ما ذكره بعض المؤرخين ثمّ ذهب إلي المسجد حيث وجـد عمراً يخطب الناس بأن النبي لـم يمت، و من المسـجد بعـد أن هدأت سورة عمر ذهبوا إلي دار النبي و لا بد أن الأنصار حينئذ انسلوا إلي سقيفتهم.

2 استغربت من الأنصار أن يتنكروا للنص علي علي، و لكن

اعتقد يا عزيزي لو انك رجعت الي ما ذكرته في السقيفة عن دوافعهم علي تنكيرهم لكان لك مقنعاً كافياً.

و أما قولك: (فقد كان الأولي أن لا تغيب عن فطنة رسول الله و هو المؤيد بالوحي فلا يأمر بأمر امته يعلم سلفاً بأنهم لا يطيعون فيه فيعرضهم بذلك إلي غضب الله...) فاني أقول كيف يغيب عن فطنتك قوله تعالي: (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ). و قوله: (إِنْ أَنْتَ إِلاّ نَذِيرٌ) . و قوله:

(فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ ...) و أمثال ذلك في القرآن كثير. و في الحقيقة ان الرسول عليه ان يبلغ الأمر الإلهي و ليس عليه أن لا يطيعه الناس. و لا يصح أن يتنازل عنه لمجرد انه يعلم سلفا انهم لا يطيعونه. و إلا لوجب ان يترك كثيرا من الأحكام كلها لأنه يعلم سلفا انهم كلهم أو بعضهم لا فرق لا يطيعونه. و من المواقع التي يعلم سلفا انهم لا يطيعونه فيها و مع ذلك بلغها قوله تعالي (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً) فانه اجمع المفسرون و أهل الحديث انه لم يعمل بهذا الحكم إلا علي عليه السلام(1)

يا عزيزي إن الله تعالي يقول: (وَ ما أَكْثَرُ النّاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) ثمّ يقول عن المؤمنين بالخصوص: (وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاّ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ) فاذا كان تعالي يعلم سلفاً و رسوله يعلم سلفاً ان الناس اكثرهم لا يؤمنون و أن يؤمنون اكثرهم في ايمانهم مشركون، فيكون علي قولك ارسال الرسل و تبليغ الأحكام للناس من قبلهم تعريضاً

1- (1) هذا الحديث مما ترك روايته البخاري و مسلم أيضاً و استدركه عليهما الحاكم علي شرطهما (482:2) مع الاجماع علي نقله فلما ذا تركه الشيخان ؟

لاكثر الناس و اكثر المؤمنين منهم إلي غضب الله و تذهب جهود الرسل في هدايتهم سدي.

أ هذا هو المنطق يا قرة عيني ؟ أ يترك الله دينه و احكامه لسواد عيون الناس لأنه يعلم سلفاً انهم يعصونه ؟ لا يا أخي إن الحق يجب ان يبين و الحكم يجب ان يوضح سواء أطاع الناس أم عصوا و ما علي الرسول إلا البلاغ.

في البحث الرابع

قلت عن بعث اسامة: (ان رسول الله (صلي الله عليه و آله) لم تكن تأخذه في الحق لومة لائم و هذا التدبير أشبه بتدبير الضعفاء). و أقول: نحن بعد أن تثبت عندنا النصوص علي علي فانا نعرف كيف لم تكن تأخذ ه

في الحق لومة لائم، فقد بين و أوضح و كرر و أكد، و لكنه بعد ان اتضح لديه ان كل هذه التأكيدات و البيانات ستخالف علي كل حال و ان هناك جماعة سوف لا تطيع الأمر في علي فأراد أن يبعدهم عن المدينة بهذه الطريقة. و ليس هذا من تدبير الضعفاء بل من التدبير الحكيم بعد أن نعرف ملابسات الواقعة كما أوضحناها في كتاب السقيفة.

نعم نتصوره من تدبير الضعفاء إذا نحن أنكرنا تلك النصوص علي علي و تصريحات النبي في حقه و أنكرنا ان المسلمين يوم

الغـدير سـلموا عليه بإمرة المؤمنين. نعم إذا انكرنا تلك النصوص جملة و تصورنا أن النبي أراد البيعة لابن عمه سـراً فدبر ذلك التدبير الخفي لأبعاد خصومه فلا نتصور النبي حينئـذ و حاشاه إلا جباناً ضـعيفاً يريد أن يخاتل المسـلمين في ابن عمه. و لكن يا أخي كل هذا التدبير إنما يكون مقبولا حكيما إذا كان قد وقع بعد ما اعلن أمر ابن عمه فلم تنفع معهم كل تلك التوضـيحات و علم اصـرارهم علي المخالفة فأرسـل هـذا البعث، و إن لم ينفـذوه فقـد أقام به الحجة البالغة عليهم، و الا فلما ذا خالفوا أمره فيه و لما ذا تباطؤا و اعترضوا علي تأمير اسامة ؟ و قد بسطنا كل ذلك في كتاب السقيفة.

و لا يشك التاريخ في وقوع البعث و لا في تأخر المبعوثين عن تنفيذه و لا في تألم النبي منهم و غضـبه عليهم و اصراره عليه مرة اخري. و لا يصح تفسـير ذلك بغير ما ذكرنا إلا إذا كنا ننكر النصوص علي علي جملة، فهذا أمر آخر و لا كلام لنا مع هذا المنكر فان مثله لا يستطيع أن يستسيغ هذا التفسير قطعاً.

أما تقـديرك أن جيش اسامـة هـذا لو رجع بعـد ان يفتـح و قـد وجد الأمر قد تم لعلي قد ينتقض فيحارب من في المدينة، فهذا احتمال من الجائزان يقع و أن لا يقع، و لكن لو وقع منهم فانهم يكونون كأهل الردة الخارجين علي امام زمانهم يحاربون و تكون الحجة عليهم لا سيما مع سبق النصوص و بيعتهم لعلي يوم الغدير و لم يبق مجال للتأويل أو تجاهل النص علي علي بعد تمام البيعة له.

في البحث الخامس

انك تشك في صحة حديث الكتاب الذي أراد النبي أن

يكتبه. و أنا أقول لا مجال لهذا الشك بعد ثبوته برواية أهل الحديث و التاريخ و التفسير. و لا بد من التسليم به بعد ان كان متواتر النقل أو في حكم المتواتر. و أما ما ذكرت من سبب الطعن فيه ففيه كثير من فضول القول فيما يتعلق باحتمال انه كان قرآنا فانه ليس مجال لهذا الاحتمال و لا يتصوره أحد بل هو كتاب أراد أن يسجله للمسلمين لئلا يضلوا بعده فأبوا لأنفسهم هذه النعمة. و كونه بادرة لم يسبق لها مثيل منه (صلي الله عليه و آله) فهو صحيح و لكن لا يوجب ذلك انكار للحديث و هل تعجب من النبي ان يصنع شيئا لم يسبق له نظير لا سيما و انها بادرة تقع في اخريات ايامه قصد بها أن يفارق امته عن شيء يسد عليهم باب الخلاف و الضلال. ان النبي اعظم من ان تستكثر عليه مثل هذه البادرة.

و أما قولك: (ثمّ من هو عمر هذا الذي يأمر و ينهي و لا يستطيع أحد مخالفته) فهذا صحيح و لكن عمر لم يمنعه بقوة سيف أو سيطر علي المسلمين أو علي النبي و إنما منعه لأنه ألقي شبهة تثير الخلاف مدي الدهر و هي ان النبي كان يهجر أو غلبه الوجع ما شئت فعبر، و أقل الناس يستطيع ان يصنع ذلك لا سيما إذا وجد أعوانا و انصارا و بالفعل قد وجد عمر اولئك الأعوان إذ رأينا المسلمين الحاضرين قد اختلفوا علي فرقتين، فبطل مفعول الكتاب الذي كان المقصود منه أن لا يضلوا بعده أبدا كيف و قد صار هو نفسه موضوعاً للنزاع و الجدال و النبي حاضر بينهم و امام عينيه حتي أغضبوه و قال: (قوموا عني و لا ينبغي عند نبي نزاع). و لا يريد النبي أن ينفذ مثل هذا بقوة السيف أو العشيرة فان طبيعة الموضوع تأبي ذلك لأن هذا يزيد في الخلاف و يعقده.

نعم صحيح قولك: (و لم يزد عمر علي ان رأي رأيا حين قال: ان الرجل قد غلبه الوجع...) و لكن هذا الرأي لا بد أن يحول دون تنفيذ الكتاب لأن طبيعة الموضوع تقتضي أن يحول هذا الرأي دونه كما قلنا، فنعرف السر في عدوله (صلي الله عليه و آله) عن تنفيذ الكتاب و نعرف كيف جاز له العدول عنه.

و ما أدري أي أمر جوهري أعظم من كتاب يؤمن الناس من الضلال ابدا، و هل المقصود من الدين شيء فوق هذا، حتي تقول أنت: (و لو كان الأمر متعلقا بأمر جوهري من امور الدين...)

و بذلك البيان تعرف يا أخي مدي قولك بالأخير (و إلا لترتيب علي ذلك ان النبي (صلي الله عليه و آله) كتم كثيرا مما كان يريد تبليغه خشية عمر و غيره و لا أظن مؤمنا يقول بذلك) فاني اكرر القول بأن النبي انما عدل عنه لا خشية من عمر و غيره و لكن الشبهة التي أثارها و تقبلها بعض الحاضرين بالفعل فاختلفوا بحضوره لا تبقي مجالا للكتاب، لأنه بالعكس سيكون سببا للضلال و الخلاف ابدا الدهور بعد ان كان المقصود منه تأمين البشر من الضلال، فلا بد أن يعدل عنه روحي فداه، و لا ينفع معه التدبير باخراج عمر و لا أي تدبير آخر حتي بقتله كما تقول، لأن الشبهة قد وقعت رضوا أم أبوا، و كل قول و فعل حينئذ من النبي بعد هذا يكون موضعا لهذه الشبهة بأنه من الهجر و غلبة الوجع. و حق لابن عباس و غير ابن عباس بعد هذا أن يبكي و يبكي بل حق له أن تتفطر كبده ألماً لفوات هذه النعمة الكبري التي لا تعادلها نعمة، مهما كان مقصود

النبي من ذلك البيان الذي لا يضلون بعده أبدا سواء كان هو النص علي علي أو علي أي شيء آخر.

و نحن رجحنا ان يكون المقصود هو النص علي علي للدلائل و الاشارات التي ذكرناها في كتاب السقيفة و من جملتها قول عمر: (حسبنا كتاب الله) الذي هو صريح في ان ما يريد ان يبينه النبي هو عدل للقرآن، و يسرع إلي أذهاننا حينئذ حديث الثقلين و انه هو المستهدف في البيان و المنع منه.

ثمّ انك تسأل عن الحاجة إلي الكتاب بعد نص الغدير و غيره، فان الحاجة اليه ما كان يستشعره النبي من عزم جماعة علي تجاهل تلك النصوص كما وقع فعلا. و أما قولك: (و من نسي حديث الغدير و انكره علي قرب العهد به فهو لما في الكتاب المزمع كتابته أشد نسيانا و نكرانا) فاني لم استطيع فهمه و لم اعرف فيه وجه كون الكتاب أشد نسيانا، فان ما هو مكتوب أثبت مما ينقل علي الأفواه و كيف يتطرق اليه النسيان أو النكران و هو حجة ثابته مكتوبة، علي انه لو وقع يكون أقرب عهداً إلي الناس من حديث الغدير لو كان بعد العهد هو السبب في النسيان أو النكران كما اردت ان تقول.

في البحث السادس

1 قلت: (إن ما نسب إلي الامام... يدل دلالة صريحة علي عدم ثبوت حديث الغدير) و أنا استميحك عذرا إذا قلت لك:

إن كلامك هذا غير فني فان ما ذكرته من قولي الامام: (احتجوا

بالشـجرة...) و (افسدت علينا...) لا معني لان يقال فيه انه يدل دلالة صريحة علي نفي الحديث، لأنه لا دلالة لفظية فيه علي ذلك، و أقصي ما يمكن ادعاؤه انهما يدلان بالدلالة العقلية علي نفيه باعتبار انه ترك الاسـتدلال بحديث الغدير في موقع كان الأولي أن يسـتدل به، فعدوله عنه دليل علي عدم ثبوته و إلا لاستدل به. و هذه الدلالة لا تسمي دلالة صريحة.

و نحن ننكر عليك حتي هذه الدلالة العقلية لأنه لم يكن في موقع الاستدلال بحديث الغدير حتي يكون تركه دليلا علي عدم ثبوته في القول الاول، لانه جاء احتجاجا علي من احتج باسـتحقاق الخلافة بالقرابة من الرسول فقال لهم: إذا كان ذلك سببا للاستحقاق فمن كان اكثر قرابة و أقرب فهو أولي بالاسـتحقاق. و التشبيه بالشـجرة و الثمرة من التشبيهـات البديعـة في الباب فانه لبيان أولويـة الاسـتحقاق للأقرب لأنه هو الثمرة التي هي أولي من أصل الشـجرة بالاسـتفادة منها بل الثمرة هي الغايـة المقصودة من الشـجرة. و ليس هذا موردا لذكر النص لأنه من باب النقض علي المستدل بحجته.

و أما القول الثاني فعلي تقدير صحة نقله فان قوله: (لم ترع لنا حقا) كلام عام يجوز ان يراد به النص و يجوز ان يراد مطلق الحق الذي صورته في كلامك. و هـذا التصوير الذي ذكرته و أطنبت فيه ليس في كلام الامام دلالة عليه و إنما هو من اجتهاد الكاتب حينما تخيل ان الامام لا نص عليه فلا بد أن تكون احتجاجاته و شكواه ناشئة من اعتقاده بالأحقية.

ص:201

2 تحـدثت عن قصـة انصـراف الناس عنه بعـد موت فاطمة فانه كلام غريب فانه لا ربط له بقصة النص و إنما تلك القصة ترتبط بقصة التجاء الامام إلي مسالمة القوم بعد الانصراف عنه.

3 تقارن بين قول الامام: (فنظرت فاذا ليس لي معين...) و بين آيـة (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ) لتسـتدل من الآيـة علي تكـذيب نسـبة هذا القول اليه. و ازيدك انك بهذا الاسـتدلال تسـتطيع ان تكذب كثير من الأحاديث النبوية مثل احاديث الحوض و نحوها الدالة علي ارتداد أصحابه بعده و تبدلهم و رجوعهم القهقري و المروية في الصحاح.

غير اني احيلك علي كتب التفسـير لمعرفة مدي دلالة هذه الآية. و ما علينا من كتب التفسـير! لننظر بأنفسـنا إلي مدي دلالة هذه الآية علي المقصود:

ان دلالتها تكمن في كلمـة (كنتم) فان كانت علي ظاهرها من دلالتها علي الماضـي المنقطع بمعني انهم كانوا فيما مضـي خير امـة ثمّ لم يستمر ذلك لهم فلا ينافيها أن تكون الامة قد انقلبت بعد الرسول علي الاعقاب لأنه قال: كنتم خير امة، و لم يقل انتم خير امة أبد الدهر.

و لكن بعض المفسـرين أوّل معني (كنتم) فقال: انها للماضـي الاسـتمراري مثل قوله تعالي: (وَ كانَ اللّهُ غَفُوراً رَحِيماً) و أنا شخصياً كذلك أفهم هـذا المعني من الآيـة، غير ان الـذي يشـكل علينا ان المسـلمين لم يكونوا في جميع عهودهم علي ما تصف الآيـة الكريمـة يأمرون بالمعروف و ينهون عن

المنكر لا ـ سيما في مثل عهودهم الحاضرة التي لم يبق فيها من المعروف حتي رسمه فضلا عن أن يكون كلهم من الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر. هذا هو الواقع المرير الذي لا سبيل لنا من انكاره و المكابرة فيه فكيف نتصور انطباق الآية علي عهودنا و امثالها.

و عليه فليس الاشكال يخص الامة الاسلامية في أول عهودها بعد النبي بل في جميع عهودها الغابرة و الحاضرة فكيف نستطيع التوفيق بين واقع امتنا المحزن و بين دلالة الآية علي امتداح هذه الامة و تفضيلها علي سائر الامم لأنها تأمر بالمعروف و تنهي عن المنكر؟ كيف التوفيق يا تري ؟

و الذي يخطر في بالي من الجواب علي ذلك أحد أمرين (الأول) و هو الأرجح عندي ان الآية قد تقدمتها آيات أخر ذكرت وجوب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و إن هذا التشريع كما يبدو منها انه من مختصات المسلمين المخاطبين بهذا الوجوب علي أن يتولي بعضهم هذا الأمر ثمّ ذكرت نهي المؤمنين عن ان يتفرقوا و يختلفوا من بعد ان جاءتهم البينات فتبيض وجوه بعض و تسود وجوه آخرين ثمّ قال: (كنتم خير امة...) لبيان انه لما كانوا خير الأمم لا ينبغي ان يختلفوا و سر انهم خير الأمم لأنه قد شرع لهم الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و ليس المقصود الأخبار عن انهم كلهم يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر لا سيما ان المخاطب

بالوجوب بعض المسلمين علي نحو الوجوب الكفائي (و لتكن منكم امة يدعون الي الخير و يأمرون بالمعروف...)

(الثاني) ان المراد انكم تأمرون بالمعروف من حيث مجموعكم و لو بامتثال البعض و ان كان ذلك البعض قليلا باعتبار ان ذلك البعض من الامة يعمل باسمها كأنه يقول: انكم خير الامم لأن فيكم من يأمر بالمعروف و ليس كذلك باقي الامم. و هذا كما نقول مثلا ان الأمة الانكليزية احتلت العراق، و ليس المراد ان جميع الامة احتلته بل بعض جيوشها و ذلك باعتبار ان ذلك البعض منها و كان عمله باسمها.

في البحث السابع

1 تسأل عما إذا كان تناقض بين قول الامام: (لو وجدت اربعين ذوي عزم...) و بين قوله: (فأمسكت يدي حتي رأيت راجعة الناس...) فاني لم اعرف وجها للتناقض بين القولين فان الامام في الأول يقول: لو وجدت الأربعين علي هذه الصفة لناهضت القوم، و معني ذلك انه لم يجد الأربعين فلم يناهضهم يعني انه سالمهم، ثمّ صرح في الثاني بأنه امسك يده عن نصرتهم غير انه لما رأي راجعة الناس عن الاسلام فرأي ان المصيبة في ذلك اعظم من مصيبة فوت الولاية فالتجأ أن ينصر الإسلام لأجل ذلك، لا نصرة للامراء و لا لكونهم عنده أهلاً للنصرة كما هو مدلول كلامه. و أنت

تري ان احد الكلامين يتصل بالآخر و يكون متمماً له، فأين التناقض ؟

أما انه لو ناهض القوم بالأربعين عنـد ما يجدهم فانك تحتمل ان تدور عليه الدائرة كالحسـين فهذا تكهن لـم يعترف به الامام و هو من ظاهر كلامه كان جازما بأن الأربعين علي هـذه الصـفة لو وجـدهم لكانوا كافين له في النصـرة علي خصومه. أما انه يكون ذلك ثلما للاسـلام لو انتصر عليهم، فمن أين نفهمه إذا فرضنا انه انتصر علي غاصبي حقه من الخلافة التي هي بنص النبي و بها حينئذ قوام الاسلام لا هدمه إلا إذا كنا لا نعترف بالنص فهذا أمر آخر.

و أما كفاية نصرة مالك بن نويرة فعلي تقديره فهو واحد من ذوي العزم إذا كان هو حقيقة من ذوي العزم الذين يشترطهم الامام فكيف تفرض ان الحجة قد قامت عليه بمالك وحده علي انه كونه يعترف بحقه شيء و كونه من ذوي العزم شيء آخر.

و أما سؤالك عن اتفاق قوله عليه السـلام: (فخشيت ان لـم أنصر الاسلام و أهله ان أري فيه ثلماً أو هدما) مع ما ذهبتُ اليه من تقاعس الامام عن نصـرة الخلفاء إلا بمقدار الضـرورة فانه واضح الاتفاق لان الامام في صدر كلامه ذكر انه أمسك يده و لكن ضـرورة حفظ بيضة الاسلام دعته إلي النصرة. و هذا صريح بأن الضرورة هي التي دعته الي ذلك

و الضـرورات تقـدر بقدرها لا ان النصـرة ابتدائية بدافع نفسـي ليناقض ما قلته عنه، بل هذا الكلام مما يؤيد قولي و يؤكده و هو يدل علي أن العمل الذي يعلم انه يضر بالاسلام يتركه و يعمل ما يري عمله ضرورة اسلامية، فكيف كان قوله هذا يدل علي انه يحجم عن الفعل أو القول الذي يكون خذلانا للاسلام كما رغبت انت ان تقوله و تتصوره عن هذه الكلمة.

نعم ان الامام اعظم و أجل ان يتقاعس عن عمل يراه واجبا لنصـرة الاسـلام، و من اين يدل كلامه المنقول او كلامي المسـطور علي خلاف ذلك فاذا تباطأ ابو الحسن فانما تباطأ عن شيء يكون فيه نصرة لأبي بكر و عمر و لم يتباطأ عما تدعوه الضرورة الاسلامية الي فعله، و انما لم يشترك في الحروب لأنه حينئذ يكون مأموراً لهم و هذا ما كان يتحاشاه بل يتحاشونه معه. و ما ذكرته في السقيفة عن ذلك ففيه الكفاية.

و أما قياسه في الاشتراك في الحروب بعمر و عثمان و طلحـة و امثالهم فقياس مع الفارق البعيد، لو كان هناك قياس، و ابو الحسن من تعرف في حروبه ايام خلافته و لم يشترك قبله و لا بعـده من الخلفاء بنفسه في الحروب، فكيف يقاس غيره به و كيف لا يسـتغرب عـدم اشتراكه في الحروب ايام الخلفاء قبله و كيف لا يدل ذلك علي عدم تعاونه معهم معاونة صادقة ؟

هذا ما أردت ان اقوله يا قرة العين في جوابات

اسـئلتك و اعـذرني إذا كنت قـد رمزت لك رمزاً في كثير من الأبحاث اقتصاداً في الوقت و اسـتعجالاً في الاجابة للشواغل التي دهمتني في خلال تسجيل هذه الرسالة فعاقتني عن الاسراع إلي اتمامها في الوقت المناسب.

و تقبل التحيات من المخلص

محمد رضا المظفر

12 جمادي الاولي سنة 1373

أهم مصادر الكتاب

1 صحيح البخاري المطبوع بمصر عام 1320 ه

2 صحيح مسلم المطبوع بمصر عام 1390 ه

و ما في ص 58 رجعنا فيه الي المطبوع عام 1334 ه

3 مسند احمد المطبوع بمصر عام 1313 ه

4 العقد الفريد المطبوع بمصر عام 1353 ه

5 مستدرك الحاكم

6 الجمع بين الصحيحين

7 كنز العمال

8 تاريخ الطبري

9 تاريخ ابن الأثير

10 تاريخ الخميس

11 تاريخ اليعقوبي

12 السياسة و الامامة لابن قتيبة

13 تاريخ الخلفاء للسيوطي

14 تاريخ ابن خلدون

15 مروج الذهب

16 السيرة الحلبية

17 سيرة ابن هشام

18 سيرة دحلان

19 طبقات ابن سعد

20 الاصابة

21 الاستيعاب

22 اسد الغاية

23 التهذيب لابن عساكر

24 ميزان الاعتدال

25 نهج البلاغة

26 شرح النهج لابن ابي الحديد

27 منهاج السنة لابن تيمية

28 الصواعق المحرقة له

29 مقالات الاسلاميين لأبي الحسن الأشعري

30 الملل و النحل للشهرستاني

31 الفصل في الملل و النحل لابن حزم

32 البيان و التبين للجاحظ

33 معجم البلدان

34 لسان العرب

53 حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِی الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: 9

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلی، الرقم 129، الطبقة الأولی.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 88318722 ـ 021

قسم البيع 09132000109شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز القائمية للبحوث والتحريات الكمبيوترية
اصبهان
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاءِ من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹